مزاج الباشا

تطور ثقافة الخمور في مصر

محمود خيرالله

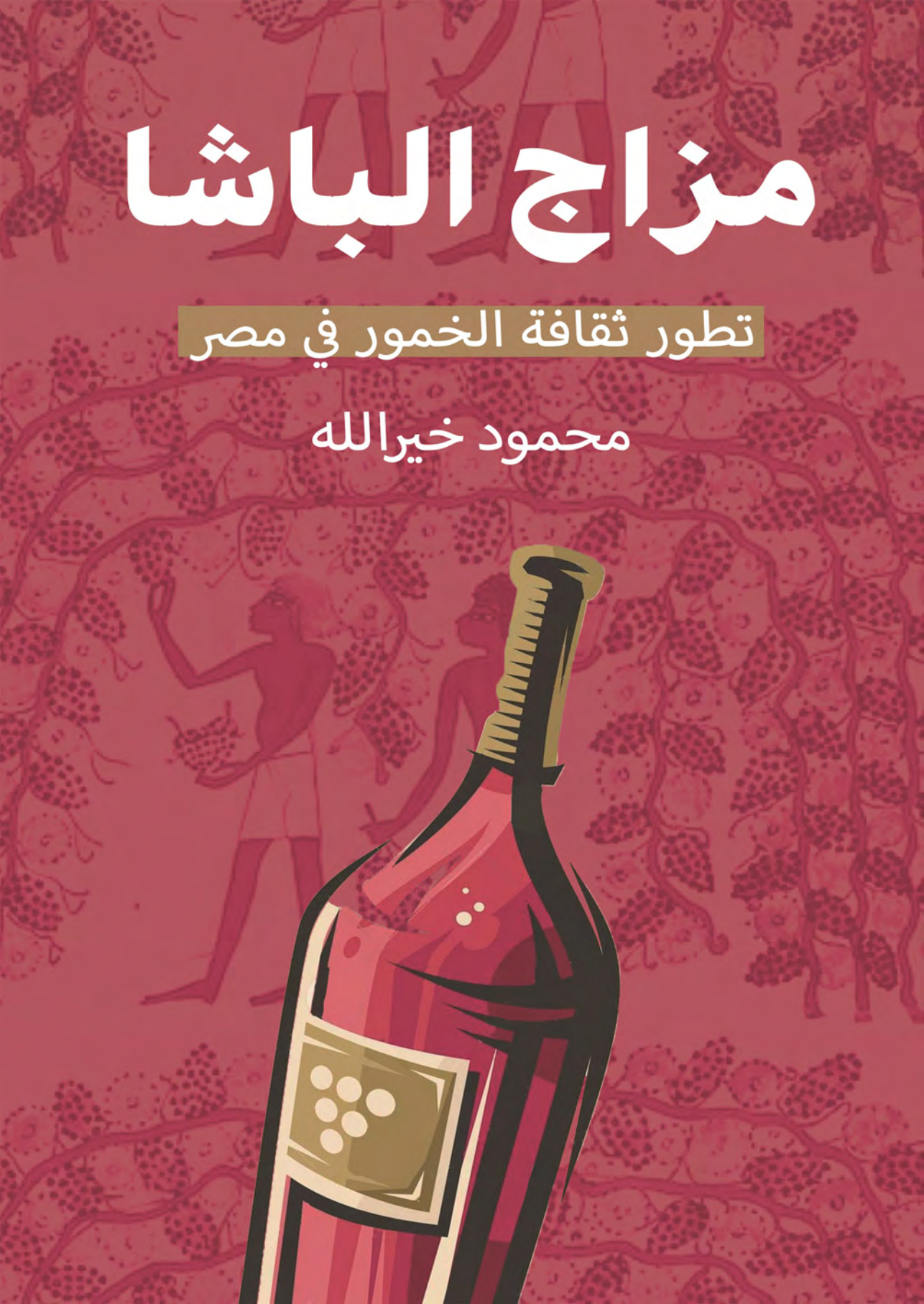

مزاج الباشا

تطوُّر ثقافة الخمور في مصر

مزاج الباشا
طبعة 2022
رقم الإيـــــداع: 2021/30724
الترقيم الدولي: 978-977-821-240-2

جميع الحقوق محفوظة ©
عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

مزاج الباشا

تطوُّر ثقافة الخمور في مصر

محمود خيرالله

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

خيرالله، محمود
مزاج الباشا: تطوُّر ثقافة الخمور في مصر / محمود خيرالله
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
٢٠٨ ص، ٢٢ سم
تدمك ٢-٢٤٠-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- المشروبات الروحية - تاريخ
أ- العنوان

٦٤١,٢٠٩

رقم الإيداع: ٣٠٧٢٤/ ٢٠٢١

المحتويات

6	**إهداء**
9	**مقدمة:** رحلة الخمر "المقدسة" إلى "التحريم"
31	**الفصل الأول:** إلهٌ للنبيذ .. ربَّة للجعَّة (تقديس الخمور في مصر القديمة)
47	**الفصل الثاني:** "عيد السُّكْر" (الخمور في الحياة اليومية لقدماء المصريين)
69	**الفصل الثالث:** العرب والخمور قبل الإسلام
91	**الفصل الرابع:** العرب والنبيذ معًا في مصر
109	**الفصل الخامس:** خمر المماليك: بيوت المِزْر
127	**الفصل السادس:** العصر العثماني: "أمانة مقاطعة الخمر"
143	**الفصل السابع:** بار المشهد الحسيني
159	**الفصل الثامن** مزاج الباشا
181	**الفصل التاسع** دور البارات في انفجار "ثورة عرابي"
199	**شكر واجب**

إهداء

إلى أولادي: نورالدين وخالد وعلي

أملًا في أجيال جديدة تؤمن بحضارة هذا البلد

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

"سورة النَّحل الآية ٦٧"

مقدمة

رحلة الخمر «المقدسة» إلى «التحريم»

"جرت المعارضة الثورية للإقطاعية عبر القرون الوسطى كلها، ووفقًا لظروف الزمن كانت هذه المعارضة تظهر إما في شكل تصوُّف، أو في شكل هرطقات سافرة، أو في شكل انتفاضات مُسلَّحة.."

إنجلز

1

بينما أتجول بين فصول التاريخ لقراءة تطور ثقافة شرب الخمور[1] وتأثيرها الكبير على الثقافتين المصرية والعربية بوصفهما جزءًا من الثقافة الإنسانية، اكتشفت أن الطريقة المثلى لمواجهة التكفير السلفي السائد في الذهنية العربية، هي الهجوم على هذا التفكير في عقر داره أقصد في الماضي، أي في تلك المساحة التي يتحرك فيها السلفيون بأفكار غير علمية وغير مترابطة وغير متعلقة بالواقع التاريخي الحي، كما اكتشفت أن القدرة على تقديم نوع من المعرفة العلمية بالماضي كفيلة بهدم كثير من قناعات "الذهنية السلفية" السائدة والمبنيَّة على أسس إيمانية هشَّة؛ لذا فإن بعض وقائع التاريخ الموثقة تُكذِّب بسهولة عشراتٍ من قناعات العقائد الإيمانية غير المستندة إلى أدلة تاريخية.

لذا اخترت أن أقرأ تاريخ ثقافة الخمور في مصر، لأثبت أن الماضي كان يحتوي على كل أنواع الفجور مثلما كان يحتوي على الإيمان والورع والزهد، وأن بيوت احتساء الخمور كانت موجودة في الزمن القديم بجوار

1- من الناحية الكيميائية الخمرة هي كل عصير يحتوي مادة الكحول الأثيلي التي تتفاوت ونوع المشروب، وقد يطيب بأصناف من العطور والأباريز. وقديمًا كانت الخمرة تطلق على كل ما يُعصر من العنب، ثم يصفى ويوضع في الرواقيد ويخمر في جرار ودنان مزفتة توضع مدة في الشمس ثم في ظل لايطاله هواء حتى يُصبح عصيره مسكرًا. أو كل ما أسكر من عصير العنب. و"ما لم يُعمل من عصير العنب حتى يشتد لا يُسمى خمرًا" (العقد الفريد). أما النبيذ فهو العصير أو النقيع الذي ترك مدة حتى فار وظهرت زبدته أي رغوته. أو "كل ما ينبذ في الدُّبَّاء (القرع) والمُزفَّت فاشتد حتى يسكر كثيره وما لم يشتد فلا يسمى نبيذًا". وتنقسم المشروبات الروحية أو الكحولية في الوقت الحاضر إلى قسمين: أولًا خمور غير مقطرة وتستخرج من تخمير بعض الثمار والفواكه، مثل عصير العنب والتفاح، ومناقيع الشعير والذرة والحنطة وغيرها، كالنبيذ والسيدر والجعَّة (البيرة) وتتراوح نسبة الكحول فيها بين 5 و25 في المائة، ثانيًا خمور مقطرة وهي مشروبات تستخرج من تقطير الخمور بعد أن تمر بعمليات تخزين وتقطير ترفع نسبة الكحول فيها، كالعَرَق من تقطير العنب والكونياك من تقطير الخمرة البيضاء والروم من تقطير خمر قصب السكر وغيرها. وتتراوح نسبة الكحول فيه بين 25 ـ 55 في المائة.

المعابد ودور العبادة، مثلما هو الأمر دائمًا: "حيث الفضيلة والرذيلة يدخلان الجنة معًا يدًا بيد"، كما كتب نيكوس كزانتزاكيس ذات يوم، ولأن الجميع قرأ التاريخ من كل الزوايا، شئنا أن نقرأه نحن من هذه الزاوية بالذات؛ لأنها زاوية مصرية بامتياز، على الرغم من أن ثقافة الخمور هي ثقافة عالمية بلا شك، فقد كان من السهل ملاحظة أن أول ظهور لها كان خلال بواكير تشكل العقل الجمعي للبشر، أقصد في مرحلة "ما قبل التاريخ"، وأن إطلالتها الاستثنائية ظهرت في روايات الأديان الوثنية، وفي بعض الأساطير المتعلقة بالخلق، حيث تواتر الحديث في هذه المصادر عن الخمر، كأنها جزء لا يتجزأ من ثقافة البشر الأولى تصحبهم في حياتهم وتتقاسم معهم القبور، وهالني أن احتساء الخمر انتقل في الذهن البشري من مرحلة "التقديس" أولًا في بعض الأديان السماوية كاليهودية، حيث اعتبرت جزءًا من القربان المُقدَّس، إلى مرحلة ثانية هي مرحلة "التحريم" في ذهنية أديان سماوية أخرى، مثل الإسلام ـ علمًا بأن النص القرآني نفسه لم يستخدم مصطلح التحريم صريحًا مع شرب الخمر ـ لكن العزاء هو أن الأمرين معًا: التقديس والتحريم، يعكسان المكانة الخاصة جدًا التي أَوْلَاها البشر للخمور عبر العصور، وقد تجلى هذا الاهتمام فيما تبقى لدينا من حكايات "دينية" أو "أسطورية" تعكس بدورها تصورات البشر الأقدمين عن الخمر واحترامهم وتقديسهم لها.

الحق أن البحث في تاريخ الخمـور يدفع المرء إلى الظن في الحضور القوي لما يسميه المـفكر العراقـي الدكتور فاضـل الربيعي بـ "قوة زخم الثقافة القديمة" والحضور اللافـت في الثقافة اللاحـقة عليها وحتى اليوم، فقد لاحظ الربـيعي في كتابه "المنـاحة العـظيمة الجذور الـتاريخية

لطقوس البكاء من بابل إلى كربلاء" أن تقاليد البكاء الجماعي الديني القديمة قد انتقلت من أزمنة بعيدة وعبر عصور مختلفة وشعوب وثقافات شتى لتستقرَّ اليوم في شكل البكاء الجماعي المعروف في احتفالات الشيعة الدينية حول العالم، ودلل على هذا الزخم القوي للثقافة القديمة في شيوع الطابع البكائي الحزين في الغناء والشعر العراقيين القديم والحديث.

كما أن البحث في تاريخ الخمور هو محاولة لاكتشاف الوجه الروحي الرحيم ـ غير الدموي ـ من تاريخ البشر، بعد كل ما كُتب وأرِّخ له وتم رصده من حروب وصراعات وقتل وتشريد، جعلت البعض يعتقد أن البشر لم يكن لهم منذ عمَّروا الأرض إلا الصراعات والقتل وأنهم لم يعرفوا أبدًا لحظات التسامح والتأمل والاستمتاع، وبالتالي تُعطي هذه النظرة ـ التي ترى التاريخ حربًا ـ مُبرِّرًا لتفسير صراعات البشر الحالية وحروبهم كأنها نتيجة للماضي أو "تحصيل حاصل"، بينما الحقيقة تشير إلى أنهم مثلما كانوا يحاربون في الماضي كانوا أيضًا يغنون ويرقصون ويلعبون ويرسمون على الجدران، ومثلما كانت لهم طبول يدقونها وأبواق ينفخون فيها أثناء الحرب، كانت لهم بالقدر نفسه طقوس وفنون في الاحتفال والصخب والرقص واللهو، إلى جانب ما كان لهم من طقوس روحية شتى ترتبط بأشكال الدين وطقوسه، وقد رأينا التوقف عند الجوانب الروحية غير المرتبطة بالدين، لنتمكن من استدعاء روح التسامح التي عاشها الإنسان عبر العصور، بدءًا من مرحلة "ما قبل الهوية الدينية" واستمرت إلى مرحلة الأديان وما بعدها، لكن لسببٍ ما لم تنتبه إليها كثير من كتب التاريخ.

لقد ذُكرت الخمـور والمـشروبات ذات الطابع المُسْـكر في كثـير من

الأديان والمعتقدات ومرويات الثقافة الشفاهية القديمة المنتشرة في قارات العالم القديم، لكن ليس قبل أن يعرف الإنسان الكتابة أو الزراعة، فقد بدأ إنتاج الخمور عند الشعوب التي عرفت الزراعة، نحو 5000 سنة قبل الميلاد، بل وبعدما عرف الإنسان شيئًا من الاستقرار في قرى ثابتة، ومثلما ورد في الملحمة السومرية "جلجامش" ـ مكتوبة بخط مسماري على 11 لوحًا طينيًّا، واكتشفت في العراق في المكتبة الشخصية للملك الآشوري آشوربانيبال المتوفي 627 ق.م، والألواح محفوظة في المتحف البريطاني ـ فقد شرب أنكيدو سبعة أقداح كاملة من الخمر فتغير مزاجه وانشرح صدره وأخذ يغني، كما ورد في "العهد الجديد": "بعد أن زرع نوحٌ كَرمًا وأُسكر"، ومثلما وصفت النصوص العبرية الخمر للاستعمال في عدة احتفالات وطقوس دينية، لا يجب أن ننسى أنه كانت من أبرز معجزات المسيح عيسى، أنه صنع مقادير وفيرة من الخمر (النبيذ) عند الزواج في قانا.

يحدثنا المؤرخ الروماني المولد الأمريكي الوفاة ميرسيا الياد (1907 ـ 1986) في كتابه المهم "تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية" عن حفريات كشفت طقسًا مجهزًا بأضحيات حيوانية وتقدمات غذائية وإراقة خمر في بعض مناطق عبادة الربَّة الإلهة الحامية للموتى، في "الميغاليثية" في العصر الحجري المصقول في بعض مناطق فرنسا وفي شبه جزيرة أيبيريا، كما ظهرت المشروبات المُسْكرة في ديانات هندو أوربية خصوصًا ذلك المشروب المُسْكر الذي يسمى "السوما" كمشروب لعدم الموت، استعيض عنه على الأرجح بالشراب "مادهو" وهو نبيذ العسل، يقول الياد: "وباختصار، نقول إنه منذ العصور المُوغِلة في القدم تأكدت أشكال مختلفة من التنسك والتجارب الوَجْدية

والتقنيات "السحر ـ دينية"، ...، وبإيجاز يمكن القول إن الطرائق الوَجْدية تبرز وتحدد التجربَّة المُمَجدة باحتساء السوما أو مواد أخرى مُسْكرة، مقدمة بعض أشكال الورع الأسطوري، في حين أن التقشفات والأنظمة التنسكية تهيء لإعداد تقنيات "يوجية" ـ من اليوجا.

لا ينسى الياد تذكيرنا بعلماء لفتوا إلى أن بعض الأديان القديمة في وسط آسيا عرفت الوصول إلى نوع من الوَجْد عن طريق استعمال "الحشيش"، أو حرق دخان "نبات القُنَّب"، مُدلِّلين على ذلك بأحد تلاميذ زرادشت، هو "فيشتاسبا"، كما يلفتنا كذلك إلى أن أهم أعياد واحتفالات ديونيزوس أو "باخوس" إله الخمر عند الإغريق، كانت تضم يومًا يسمى "بيتواجيا"، وتعني افتتاح براميل من تراب "بينوا"، كان يحفظ فيها الخمر منذ محصول الخريف، ووصل بهم الأمر إلى حد أنه كانت تجرى المسابقات بين الشباب في سرعة احتساء الخمور في هذا العيد.

عمومًا، يُعدُّ أقدم دليل مكتوب على انتشار بيوت بيع البيرة كمشروب شعبي في مصر قبل الميلاد ورد في كتاب "رسائل النساء من مصر القديمة ـ 300 قبل الميلاد إلى 800 ميلادية" والصادر عن المركز القومي للترجمة 2021 من تأليف روجر باجنال ورفايلا كريبيوري وترجمة آمال الروبي، حيث تشكو صاحبة إحدى الرسائل وتدعى "هاينيخيس" التي كتبت رسالتها باليونانية عام 253 قبل الميلاد من أنها كانت تدير حانوتًا لبيع الخمور التي تجلبها من المخزن الكبير وتبيع بقيمة 4 درخمات بيرة يوميًا، قبل أن يخدع أحدهم ابنتها الشابة ويأخذها معه، بينما كانت الابنة تساعد أمها في إدارة هذا الحانوت.

لكن أجمل وأغني أشكال التوثيق لما يمكن أن نسميه اليوم على

سبيل المبالغة "عبادة الخمر" فقد جاءتنا من مصر القديمة، وتحديدًا من مقبرة "سنفر"، التي بنيت نحو عام 1400 قبل الميلاد، والمعروفة بمقبرة "العنب" وهي من أشهر المقابر التي اكتشفت في العصر الحديث في مدينة "الأقصر"؛ لأنها تضم على جدرانها رسومات لأشجار العنب، حيث كان النبيل "سنفر" يشغل منصب عمدة مدينة "طيبة" ومشرفًا على حدائق معبد "آمون" فى عهد الملك أمنحتب الثاني، وكان مسؤولًا في عهد "تحتمس الثالث" ـ أحد أعظم حكام مصر ـ عن غابات الكروم الملكية، والتي كانت تزرع وتُعصر لعمل شراب العنب.

2

نحن نظن أنه لكي يمكننا تجاوز ماضينا الهجمي كبشر وكأفراد، لابد من الانتباه إلى ماضينا الروحي "الإنساني"، وبينما كنا نحاول أن نقرأ تاريخ الخمور في مصر، مُتتبعين انتشارها بوصفها واحدةً من العلامات التي تعكس تاريخًا من ثقافة التسامح على مر العصور، اكتشفنا أن ممارسة الحق في تناول البيرة والخمور، على نطاقٍ مجتمعيّ واسع، كانت ـ دائمًا وطوال هذا التاريخ المصري الطويل ـ مؤشرًا لا يطوله الشك على مدى نهوض الدولة المصرية، ودليلًا على قدرتها كحكومة ـ أول حكومة "مركزية" عرفتها الإنسانية ـ على الإنتاج والفعل والبناء.

لقد كان من اللافت بصورة مثيرة للريبة، أن هذا المؤشر بالذات ـ أقصد الحق في تناول البيرة والخمور ـ هو المؤشر الذي اتفق الجميع على استبعاده من قراءة التاريخ المصري، بحيث لم يلتفت إليه أحد من قبل، لا من كَتبَة التاريخ ولا من باحثيه ولا حتى من المعنيين بالتاريخ

الوجداني للمصريين، على اعتبار أن أحوال الخمور صناعة وتجارةً وتأثيرًا، لا تصح أن تكون مؤشرًا على فهم الأوضاع الاجتماعية والنفسية للناس في كل العصور، وكأن الخمور لا يصح أن تقومَ دليلًا على قراءة تاريخ العدالة الإنسانية على الأرض، وهي رؤية قاصرة ومضللة بلا شك، نذر هذا الكتاب نفسه لكي يثبتَ خطأها أولًا، وأن يقدم من الوقائع ما يؤكد ثانيًا أن جوانب "مهمة" في تاريخ هذا البلد، لا يمكن معرفتها سوى بقراءة التاريخ الوجداني للمصريين، وتحديدًا تاريخ الخمور.

نعم هذا الكتاب يحاول أن يثبت أن حق الناس في تناول الخمور كان دائمًا مؤشرًا لا يطوله الشك على مدى نهوض الدولة، وأضرب لذلك مثليْن من عشرات الأمثلة التي وردت في سياق هذا الكتاب وبين سطوره، أولهما من مصر القديمة هو "بُناة الأهرامات"، وثانيها من التاريخ الحديث هو "جيش محمد علي باشا".

إن أعظم دليل على صحة كلامي هو قدرة المصريين القدماء على بناء واحدة من عجائب الدنيا السبع، "الأهرامات"، حينما كانت الحكومة المصرية قويَّة ومنظَّمة، قبل الميلاد بنحو 24 قرنًا ـ أي قبل 4400 سنة من الآن ـ بحيث كانت الحكومة قادرة على تقنين أوضاع العمَّال، بما يسمح لهم بتناول مشروب "الجعَّة"، ساعتها فقط نجحت هذه الحكومة في أن تستخرجَ من المواطن المصري أكثر ما فيه من قوة وعبقرية ودهاء، لدرجة أنها استطاعت ـ بفضل أسبابٍ ودوافع وإنجازاتٍ كثيرة ـ أن تبني واحدةً من عجائب الدنيا السبع، تقريبًا ما بين (2480 و2550 ق. م)، حيث تناول جميع عمال بناء الأهرامات تقريبًا جرعات كافية من "الجعَّة" يوميًا، وقد اكتشفت في منطقة الأهرامات أجزاء من الجرار المستخدمة في حفظ البيرة، إلى جوار ما اكتشف من كميات هائلة من

بقايا عظام الماعز والأسماك.

الحق أننا لا نحتاج إلى المصريين القدماء ـ الذين نظَّموا قبل ألفي عام صنع البيرة، ووفروها مشروبًا للصغار والكبار، بل وصدَّروا النبيذ إلى العالم الخارجي قبل الميلاد بقرون عديدة ـ لنثبتَ صحة ورفاهة المجتمعات التي عرفت تنظيم شرب الخمور، ويكفي ما نراه الآن في كل عواصم العالم الحديث تقريبًا، في أوروبا والأمريكتين ـ وحتى في دول مسلمة في شرق آسيا، مثل أندونيسيا ـ كل هؤلاء يعتبرون توفير الخمور بأسعار مناسبة أمرًا حتميًّا ولا جدال فيه لنهضة شعوبهم، بل إن المجتمع الفرنسي المعاصر ـ مثلًا ـ لا يمكنه أن يعتبر واجب الضيافة كاملًا، إلا إذا وفرَّ لضيفه ثلاثة ألوان مختلفة من "النبيذ"، مع كل وجبة طعام يقدمها له يوميًا.

طبعًا نحن ننطلق من قاعدة أن الحضارة الإنسانية هي حضارة واحدة أسهمت في تكوين عناصرها الأمم المتنوعة؛ لأن منطق التاريخ يقول إن أي إنجاز عرفته الحضارة الإنسانية يمكن أن يكون قد انتقل من مكان في أفريقيا إلى أوروبا أو آسيا، والعكس طبعًا صحيح، على نحو من "التفاعل المتصل المتقطع"، الذي يسميه المفكر العربي الراحل حسين مروة: "وحدة ديالكتيكية بين منجزات الشعوب"، ونحن نؤمن أن قوانين التطور الاجتماعي كانت وراء تشكل ثقافة احتساء الخمور، عبر التاريخ، ولا يمكننا أن نستثني الأمة العربية قبل الإسلام أو بعده من هذا الملمح، بعد أن باتت لدينا من الأدلة والروايات والأشعار والكتب ما يؤكد ليس فقط معرفة العرب في شبه الجزيرة الغربية ـ جنوبًا "اليمن السعيد" والوسط "السعودية الحجرية" بالإضافة إلى عرب الشمال ـ بالخمور وشربها، سواء قبل الإسلام أو في أول ظهوره، أو

خلال عصور الخلفاء الراشدين ـ بل أصبحنا نعرف أكثر من ذلك، إيمان العرب بضرورة الخمور وسعيهم إلى التوسع في صناعتها وتجارتها، على نحو ما سجَّلوه في مثلهم الشهير: "أهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر"، وعلى نحو ما ورد في أخبار مدوناتهم عن سُكْر- ليس فقط الشعراء والصعاليك - بل عن سُكر بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين ورجال بلاطهم، وعن انتشار "بيوت الخواطي" في جميع ربوع دولة الخلافة الإسلامية، وهي البيوت التي كانت مصحوبة دائمًا بتجارة نشطة للخمور[2]، الأمر الذي وصل ببعضهم إلى حد السَّفه، وهو نفسه الأمر الذي تنطق به آثارُهم الشعرية "الخمريات"، وكتبُهم الأدبية، وسجلاتهم التاريخيَّة.

أما في مصر ـ محور هذا الكتاب ـ فقد لعبت "الخمامير" أو "الخمارات" و"دور الخواطي" و"البوظ" دورًا أساسيًّا في الحفاظ على جزء مهم من التراث الروحي للمصريين، وهو الدور الذي لم تلعبه مؤسسات تعليمية وتربوية شتَّى، كانت تميل بحكم طبيعتها إلى تكريس الفكر الديني المحافظ بصورته التقليدية، مثل المدارس الملحقة بالمساجد الكبرى في مصر ـ على الرغم من دورها الذي لا ينكر في تعليم فئات من المصريين أصول القراءة والكتابة ـ خلال قرون العصر العثماني، وبينما كان العامة لا يجدون لقضاء الوقت سوى الذهاب إلى "الخمامير" و"دور الخواطي"، التي وفرت لهم دائمًا مكانًا للتسلِّي والترفيه، لا يخلو من بعض الفنون والموسيقى والرقص

2 - في رواية "الطبري" لواقعة اكتشاف مواقعة والي البصرة "المغيرة بن شعبة" لـ "أم جميل" نحو "17 هجرية" إشارة إلى أنه كانت هناك مشارب في بعض المنازل "بيوت زواني على الأرجح" خلال السنوات اللاحقة على ظهور الدعوة الإسلامية، حيث اكتشف في هذه الواقعة الوالي "المغيرة" شخصيًّا في واقعة روتها كثير من كتب التاريخ.

والأغاني والنكات والمُلح، تمامًا مثلما وفرَّ لهم كذلك عالمًا مُظلمًا يمكن الاختباء فيه من قبضة السلطة، كما يمكن التآمر فيه ضد المستعمِر الغاشِم، وما أكثر المستعمِرين الذين طمعوا في هذا البلد، وأرسلوا إليها الجواسيس بعدما أوصوهم بعبارة دالة جدًا هي: "إن أول مكان لاختراق أي مدينة هو بيت البغاء".

باستثناء بعض الفترات المحدودة من التاريخ، كانت الخمور تعيش آمنةً في الثقافة المصرية منذ آلاف السنين، منذ "منازل احتساء الجعَّة" في مصر القديمة، والتي تحوَّلت إلى "الخمامير" وعمَّرت طويلًا بجوار "بيوت الخواطي"، قبل أن تتطور "الخمامير" بدورها إلى "بارات"، بالمعنى الحديث للكلمة أوائل القرن التاسع عشر، حيث كان أول بار مصري أسسته الحملة الفرنسية على مصر عام 1800، وقد أشار إليه مؤرخ تلك الفترة عبدالرحمن الجبرتي، وعُرف باسم "بار المشهد الحسيني".

لقد طوَّر بقاء "الخمامير" و"البوظ" في مصر- طوال أكثر من عشرين قرنًا - ظاهرة ثقافية مميزة يلجأ إليها الوجدان المصري خصوصًا في لحظات التوتر، حيث شكَّلت على مدار قرون طويلة نواةً شعبيةً، وفي متناول أيدي البسطاء، لأفكار التسامح الديني وقيم الاستمتاع بمتع الحياة، بحيث يمكن أن نعتبرها ملخصًا لروح الوسطية المصرية، التي تمتد جذورها إلى عهد قدماء المصريين، فقد أصبح من الثابت أن الفراعنة عرفوا نوعًا من الخمارات، أو ما يمكن تسميته "منازل احتساء البيرة"، وقد يبدو ذلك بديهيًّا إذا عرفنا أنهم قدَّسوا إله النبيذ "شسمو" وربَّة البيرة "منقت"، وحكوا عن "حتحور"

قصصًا تؤكد أنها ـ بالإضافة إلى كونها ربَّة الأمومة والخصوبة ـ كانت أيضًا ربَّة للسُكْر والثمالة، حيث كان لهم عيد خاص بالسُّكْر.

وعلى عكس كتب التاريخ، توقفت كتب "الأدب الشعبي" طويلًا أمام الأغاني الشعبية التي تدور حول الحالة الوجدانية للناس، ومنها حالة السُّكْر والعربدة والاستمتاع بمتع الحياة، والتي وصلت إلى أوج انتشارها خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ويعلمنا القدير أحمد رشدي صالح في كتابه المهم "في الأدب الشعبي"، أن المصريين كانوا معنيين جدًا طوال تاريخهم باختراع طرقٍ لتمضية الوقت وقضاء أوقات الفراغ، ونحن نتحدث عن قرون لم تكن فيها من أدوات البهجة سوى القليل جدًا، والذي يعدده لنا صالح مشكورًا فقد كانت أكثر الأماكن ازدحامًا بروادها هي "المقاهي" في المدينة والدكاكين في القرى، وكذلك "الغُرز"، و"مشارب البوظة"، و"الخمير البكر"، لافتًا إلى أنها جميعًا كانت متوفرة دائمًا في الأسواق والموالد والأفراح، وبجوار أماكن العمل، ويضيف: "ما أدى إلى ازدهار النُكتة والأدب المكشوف والسيرة الشعبية، وأدب المخدرات والكيوف، وشاعت شخوص الماجنين والسكارى والمعربدين و"المساطيل"، وأبناء الليل، وإليها اختلف الشعراء الجوالون والقصاصون المحترفون و"الغوازي"، والمغنون وأبناء الفن عامة".

3

لقد بلغ إيمان المصريين القدماء بالخمر حد أن تحوَّل ماء "نهر النيل" كله إلى خمر في الأسطورة المصرية القديمة، وكما بيَّنا في الفصل الأول: "إلهٌ للنبيذ .. ربَّة للجعَّة تقديس الخمور في مصر القديمة": "شاءت إرادةُ "رع" ـ رب الأرباب ـ أن يُشَق نهرٌ عظيمٌ في الأرضين، وأمر "رع" ذلك النهر أن يتحول ماؤه إلى خمر.. وشربت التوائم المتلاصقة من خمر النهر فسكرت، فأمر "رع" ملائكته ومعاونيه من الأرباب والآلهة، أن يأخذ كل واحد منهم شعرة من رأس "رع"، وأن تُستخدم الشعرة المُقدسة لفصل تلك التوائم المتلاصقة.. فُصلت "جبتانا" عن "جبتو"، وكذلك فصلت الذكور عن الإناث، من كل تلك التوائم، ونشأ شعبٌ عظيمٌ هم الجبتوس أو النيلوس، ومن النيلوس كانت تسمية ذلك النهر المقدس بالنيل".

لقد كشفت أوراق التاريخ ونقوشه، أن المصري القديم لم يكن مؤمنًا بالخمر إيمانًا عقائديًّا نظريًّا فقط، حيث تطرقنا في الفصل الثاني: "عيد السُكر.. الخمور في الحياة اليومية لقدماء المصريين"، إلى بعض النقوش التي ألمحت إلى أن مصر القديمة كانت تعرف "الخمامير" الملحقة بـ "منازل الخواطي" أو القريبة منها، ويمكن للمرء زيارة "مقابر بني حسن" ـ في محافظة المنيا ـ وهي من آثار "الدولة الوسطى"، حيث تكشف لزائريها بعد 4000 سنة من نحتها في الجبال درجة إعجاب المصري القديم بمشروبه المفضل، فقد رسم مشاهد صناعة "الجعَّة" في مصر القديمة على جدران قبره، إلى جوار مشاهد

اللعب بالكرة وممارسة الرياضة والفروسية ومشاهد الحرب.

أما في الفصل الثالث: "العرب والخمور قبل الإسلام"، فقد أردتُ أن أدلل به على أن ثقافة الخمور كانت مُنتشرة في "الجزيرة العربية" قبل الإسلام، وأن بعض آلهة العرب في هذه الفترة كانت تعتز بشرب الخمور، مثل "ذو الشرى"، الذي كان يتم التقرب إليه بتناول الخمور، وأن سيرة الشاعر "امرؤ القيس"، صاحب مقولة: "اليوم خمر وغدًا أمر"، تعكس ما كان منتشرًا لدى طبقة من الشعراء من إعجاب بالخمور، تجلَّت وتبلورت فيما بعد باسم "الخمريات"، وإن كنا توقفنا أمام وثائق واكتشافات من التاريخ المصري القديم والحديث لندلل على كلامنا، لم نجد في التاريخ العربي قبل الإسلام وثائق أو شواهد تدل على كثير من وقائعه، فالتمسناها في بعض كتب الرواة العرب، وتوقفنا عند واقعتين: الأولى هي "سرقة غزال الكعبة الذهبي" لشراء الخمر بثمنه، والثانية واقعة "بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر"، وهي الواقعة التي خلدها المثل العربي الشهير :"أخسر من صفقة أبي غبشان"، وقال فيها الشاعر العربي:

باعت خُزاعةُ بيتَ الله إذ سكرت　　بزقٍّ خمرٍ فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالخمرِ وانقرضت　　عن المقامِ وضلَّ البيت والنادي

نحن نظن مع الدكتور سليمان حريتاني صاحب كتاب "الخمرة وظاهرة انتشار الحانات ومجالس الشراب في المجتمع العربي الإسلامي"، أن الخمور والحانات ومجالس الشراب في شبه الجزيرة العربية انتقلت من مرحلة "قبل ظهور الإسلام"، إلى مرحلة صدر الإسلام بمنتهى البساطة والتلقائية، وأنها على الأرجح تطورت وانتشرت بسبب

الفتوحات الإسلامية الواسعة لبلاد مثل مصر والشام، ونحن نعرف أن كبار الأدباء العرب القدامى، أعربوا ـ بعد ظهور الإسلام ـ عن اهتمام مبالغ فيه بالأكل والشراب، مثلما طالعنا في أشعار العرب التي تسمى "الخمريات"، وكما طالعنا لدى طائفة من كبار الأدباء والأعلام، ومنهم أحد أئمة الأدب في العصر العباسي، ونقصد الجاحظ، (أو عثمان عمرو بن بحر (159 هـ - 255 هـ) صاحب "رسالة الجاحظ إلى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وصفة أصحابه"، وهو الاهتمام الذي يمكن ملاحظته في كتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني، (المُتوفَّى عام 356هـ)، وكتاب فيروز آبادي (729 هـ ـ 817 هـ) بعنوان "الجليس الأنيس في أسماء الخندريس"، حيث ذكر فيه صاحب "القاموس المحيط" ألف اسم عربي للخمر وألف بيت شعر عربي في مدحها، وكتاب "قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور"، لابن الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم، المعروف بالرقيق (مُتوفى 420هـ ـ 1029م)، وغيرهم الكثيرون.

4

أكبر دليل على تأصل ثقافة الخمور في الوجدان المصري والعربي أن "الخمامير" التي نشأت بذورها في مصر القديمة، تطوَّرت مع الزمن ولعبت أدوارًا ثقافية وسياسية واجتماعية شتى، على مدار قرون طويلة، ما نحاول أن نتتبعه، وإن كنا نرجح في الفصل الرابع "العرب والنبيذ معًا في مصر"، أن هذه الثقافة كانت راسخة بحيث لم تستطع جيوش العرب المسلمين التي دخلت مصر (19 هـ ـ 640 م) أن تمسها بسوء،

ونعتقد أن العكس هو الذي حدث، فقد شجَّعت الدولة العربية الإسلامية الوليدة على إنتاج الخمور، لا في مصر وحدها، بل وفي الشام أيضًا، لأسباب كثيرة، نشير إليها في موضعها من الكتاب، وبالتالي استمرت هذه الثقافة متواصلة في زمن الخلافتين الأموية والعباسية وما بعدهما، كظاهرة عامة في كثيرٍ من المدن والحواضر العربية، ومنها مصر.

الحقيقة أن مصر ـ بالإضافة إلى العراق والشام ـ قدرت دائمًا "الخمامير"، وتعاملت معها لعشرات القرون، وقدمت للعالم أنواعًا من النبيذ المحلي الفاخر، منه النبيذ المعروف إلى اليوم بـ "نبيذ الفيوم"، ولم تكتفِ بذلك، بل عبَّرت الثقافة الشعبية المصرية بأدواتها المعروفة في التعبير على مدى القرون السابقة عن تعاطفها مع الخمور وشاربيها، وقد تبدت هذه الثقافة الشعبية على أكمل وجه في حكايات السكارى المنتشرة في النص الشعبي العربي الملهم "ألف ليلة وليلة"، كما امتدت الخمور أيضًا لتثبت حضورها القوي والبديهي في مجموعة كبيرة من الأمثال الشعبية منها "العنب إن صَح فسَد وإن فَسد صح"، وهي الأمثال التي تعكس إعجابًا شعبيًّا بالخمور، وتتطلب منا إعادة قراءة المفاهيم المتعلقة بـ: "العنب في الموروث الشعبي"، وهو عمل مما يتمنى المرء إنجازه. ذات يوم

أما في العصر المملوكي، فقد توقفنا في الفصل الخامس، "خمر المماليك" أمام روايات المؤرخين عن حالات السُّكْر وأماكن احتساء الخمور في مصر، خلال العصر المملوكي الأول، حيث اكتشفنا وجود ملهى ليلي قديم في القرن الثامن الهجري، كان يحمل اسم "خزانة البنود" حدثنا عنه المؤرخ المصري "تقي الدين المقريزي" (764 هـ ـ 845 هـ)، كما تطرقنا إلى عدد من سلاطين المماليك الذين اعتادوا شرب الخمور.

أما في الفصل السادس "العصر العثماني: أمانة مقاطعة الخمر"، فقد رأينا أنه لم تكن هناك أية أمانة في مقاطعة الخمر من قبل السلطان العثماني "سليمان القانوني"، (1494 ـ 1566) ميلادية؛ لأنه ببساطة مات مخمورًا، لكنه تصدى لِسَنِّ القوانين التي لا تسمح للمسلمين بشرب الخمر بينما تركها للأجانب، والحق أن المقريزي لم يَفُتْهُ في كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، أن يدهشنا بتفتحه وذكائه وسعة اطلاعه على أنواع الخمور والفروق الدقيقة بينها، بل شاء أن يضاعف دهشتنا برواية تكشف عن شَرَه أحد الذين حكموا مصر في عهد الدولة الطولونية إلى الخمور، ويدعى هارون بن جارويه بن أحمد بن طولون، حيث اكتُشفت في منطقة "أطفيح" ـ في محافظة الجيزة ـ آنية" سحريَّة، يتحول الماء فيها إلى خمر، وهي رواية لم نصادف مثيلًا لها، حتى في حكايات "ألف ليلة وليلة"، حيث عرض الحاكم بعض ملكه لشراء هذه "الآنية" السحريَّة.

في الفصل السابع "بار المشهد الحسيني"، رأينا أن الحملة الفرنسية حينما دخلت مصر وجدت مصانع تقطير الخل والخمور، كما وجدت بعض "الخمامير"، والأهم من كل ذلك، أنها وجدت تجارة الخمور شبه منظمة، حيث كان منصب "ملتزم ضرائب الخمامير" موجودًا وكان يشغله مواطن مسيحي مصري يدعى "يني الخمَّار"، وقد ورد ذكره في كتاب الجبرتي "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"، وفي "مذكرات نيقولا ترك".

مثلما ضربنا المثل بـ"بناة الأهرامات" على رفاهة المجتمع المصري حينما تتوفر فيه ثقافة الخمور لنثبتَ صحة المجتمع والدولة في مصر القديمة، رأينا أن نضرب مثلًا من العصر الحديث، فتطرقنا في الفصل

الثامن "مزاج الباشا"، إلى ما سمح به محمد علي باشا (1770م ـ 1848م)، للجنود المصريين من تسهيلات في شرب الخمور وممارسة الدعارة داخل الوحدات العسكرية أو في المعسكرات المقامة ـ مثلًا ـ في طريق الحملة العسكرية على سوريا (1831 ـ 1833) لمواجهة الجيش العثماني.

5

زمنيًّا توقفتُ في هذا الكتاب، عند بعضٍ من أحداث "ثورة عرابي" في الفصل التاسع والأخير بعنوان: "دور البارات في ثورة عرابي"، حيث لعبت البارات دورًا جوهريًّا خلال أحداث "ثورة عرابي" التي امتدت لنحو عام، وكانت البارات منتشرة في المدن انتشارًا جعلها جزءًا لا يتجزأ من المشهد السياسي العام، حيث فارقت دورها القديم (إلى جوار منازل الخواطي)، وأصبحت تلعب دورًا سياسيًّا، نظرًا لتزايد أعداد الأجانب في مصر، بعد تأسيس أول خط سكة حديد في الشرق، عام 1851، وقد أدى تزايد أعداد الأجانب، المرسلين من قبل حكومات الدول الأوربية الدائنة، وتحديدًا إنجلترا وفرنسا، في عهد الخديو إسماعيل، إلى تراكم المديونيات على خلفائه، إلى أن انفجر الوضع عام 1881، مع اندلاع "الثورة العرابية"، وبروز محور وطني التفت حوله بعض القوى، إلى أن انتهت بتدخل القوات البريطانية لتقويض الثورة وحماية العرش "الخديو توفيق"، وتأكيد سيطرتها العسكرية على مصر عام 1882.

للتدليل على دور البارات في الثورة ركزنا على واقعة شهدتها

مدينة الإسكندرية، وكانت من أهم أحداث هذه الثورة وقبل نحو شهر من هجوم الأسطول البريطاني المتمركز في البحر المتوسط على الإسكندرية وقصفها، بين 11 ـ 13 يوليو 1882، حيث كانت هناك معركة كبيرة، سالت فيها دماء مصريين وأجانب، أطلقت عليها صحف هذا الزمان اسم "مقتلة الأحد الدامي"، وقعت يوم الأحد 11 يونيه 1882، وكان مسرحها مجموعة من البارات والمقاهي، حيث تطوَّرت الأمور إلى مقتلة عامة في الشوارع، ما يكشف عن أن البارات كانت تقريبًا الساحة التي انفجر فيها الوسط السياسي المصري.

أما لماذا تم اختيار "مزاج الباشا" ليكون عنوانًا لهذا الكتاب الذي يجول في عصور تاريخية عدة؛ فلأنها عبارة من قلب العامية الدَّارِجة، وهي هنا لا تشير إلى معناها القاموسي للدلالة على حاكم بعينه أو فرد محدد، بل مُستلة من تعبير أطلقه الناس ليشير إلى ما تعتبره الجماعة الشعبية نوعًا من التقدير والتمييز الذي لا يستحقه سوى شارب الخمور، وهي تعكس التصنيف الشعبي الدارج لشارب الخمر في قمة هرم مجتمع الشاربين، حيث يقبع في قاع هذا المجتمع من يتعاطون أنواعًا معينة من المخدرات والذين يطلق على ما يتعاطونه "مزاج البوابين"، الأمر الذي ربما يشير إلى قناعة قديمة وراسخة باحترام الخمور في الثقافة الشعبية.

ختامًا، سبق لي أن تناولت في كتاب "بارات مصر قيام وانهيار دولة الأنس" ـ الصادر في طبعته الأولى العام 2016 ـ تطوُّر ثقافة الخمور في القرن العشرين، متحدثًا عن البارات التي تأسس أغلبها في نصفه الأول وسرد تفاصيل زيارة بعضها، وقد كانت تعليقات كثير من الأصدقاء على مواقع التواصل الاجتماعي خصوصًا على موقع

"جودريدز" تطالب الكاتب بضرورة التوسع في قراءة التاريخ القديم لثقافة الخمور في مصر، وها أنا أزعم أنني قد حاولت، وأتمنى أن أكون قد قدمت في هذا الكتاب مساهمةً تلبي طموحَ الأصدقاء.

محمود خيرالله

القاهرة الجديدة ـ نوفمبر 2021

الفصل الأول

إلهٌ للنبيذ .. ربَّة للجعَّة

تقديس الخمور في مصر القديمة

(الجعَّة: "البيرة" كانت المشروب القومي الشائع بين الأحياء والآلهة والموتى، وكانوا يصنعونها بعمل عجينة من دقيق الشعير، تُسوَّى في النار كالخبز، ثم يُنقع خبز الشعير هذا، وربما أضيف إليه البلح للتحلية، وبعد أن يختمر، يُصفَّى السائل في قدر، ويقول ديودوروس إن طعم ونكهة هذه البيرة، لا يقلان في الجودة عن طعم ونكهة النبيذ، وقد أيَّد هذا الرأي كَتبَة الدولة الحديثة، الذين كانوا، في وقت راحتهم من الدراسة، يحتسون النبيذَ والبيرة بمتعة مُتساوية..)

"معجم الحضارة المصرية القديمة"

بعد مجموعة من الاكتشافات الأثرية المبهرة،[3] التي عرفها العالم مؤخرًا، عن الحضارة المصرية القديمة، خصوصًا اكتشاف "معمل لصناعة البيرة" داخل "معبد نفرتيتي" في الأقصر عام 1991، لم يَعُدْ الحديث عن نَهَم المصريين القدماء في شرب "الجعَّة" منذ فجر التاريخ، أمرًا مُثيرًا للدهشة، وبات من الضروري أن نحاول الإجابة على مجموعة من الأسئلة: هل كان إقبال المصريين القدماء على شرب البيرة أمرًا عفويًّا أو مؤقتًا، أم أنه كان جزءًا من عقيدة مجتمعية راسخة، وهل كان إقبال المصريين على عشق الخمور أمرًا عابرًا، أم أنه نتج عن تطور مجموعة كبيرة من الأسباب المجتمعية والأسطورية والدينية، تشاركت مجتمعة ولعبت أدوارًا متكاملة، جعلت من "الجعَّة" الفرعونية واحدة من

3- الاكتشافات الحديثة:

ـ عام 1991 عثر عدد من علماء الآثار على بقايا أثريّة من مواد استخدمت في عملية تحضير وصُنع مشروب "البيرة" داخل "معبد نفرتيتي" في الأقصر، التي كانت في وقتٍ من الأوقات عاصمة مصر القديمة، وأوضحت بعض الاكتشافات أنه خلال شهرين فقط عالج المصريون القدماء حوالي 3 أطنان من الشعير بهدف صنع البيرة، التي كانت تُصنع من الشعير والعسل وأنواع من التوابل والأعشاب.

ـ في القرن الخامس قبل الميلاد، كانت مدينتا "نقادة" و"نخن" تشكِّلان مركزين للحضارة في مصر، قبيل عصر الأسرة الأولى، وقد عُثر على أجزاء من حائط المدينة القديم والمعبد، وبعض من منطقة المقابر، فإذا بها تضم آثار واحدة من أوائل الصناعات، حيث وجُدِ في إحدى المقابر أوَّل معمل لصناعة"البيرة" في التاريخ، يضم أربعة أزيار لتخميرها، تبلغ سعة الواحدة منها 390 لترًا.

ـ عام 2014 أعلن وزير الدولة لشؤون الآثار وقتها الدكتور محمد إبراهيم اكتشاف مقبرة رئيس المخازن وصانعى الجعة للآلهة "موت" فى عصر "الرعامسة"، ويدعى " خونسو – أم – حب"، بمنطقة الخوخة بجبانة طيبة، في البر الغربي لمدينة الأقصر".

ـ يناير 2018: انتهت جهود التنقيب التي عكف فريق من علماء الآثار والباحثون في جامعة شيكاغو الأمريكية عليها طيلة 16 سنة في مدينة تل إدفو، (600 كيلومتر جنوب القاهرة)، باكتشاف مُجمَّع مبانٍ يشير إلى أقدم مراحل مظاهر الحياة بالمدينة، وأدلة على صنع البيرة والخبز، ويتكون المُجمَّع من مبنيين كبيرين من الطوب الطِّيني، تُحيط بهما ساحات مفتوحة شاسعة وورش، ويرجع تاريخ هذه المباني إلى نحو عام 2400 قبل الميلاد، وهي الحِقْبَة المعروفة باسم "المملكة القديمة" في التاريخ الفرعوني، التي تم خلالها تشييد الأهرام.

ـ فبراير 2021: أُعْلِن عن الكشف الأثري الذي توصَّلت إليه البعثة الأثرية المصرية الأمريكية المشتركة، العاملة في شمال أبيدوس ـ محافظة سوهاج، حيث تم الكشف عما يُعتقد أنه أقدم مصنع لصناعة الجعَّة عالي الإنتاج في العالم ويرجع إلى عصر الملك مينا موحد القطرين، وأنه يتكون من ثمانية قطاعات كبيرة كانت تستخدم كوحدات لإنتاج الجعَّة، المصنع كان ينتج حوالي 22.400 لتر من الجعَّة في المرة الواحدة.

أبرز هِبَات الفراعنة للعالم، وقد كانت المشروب الذي صاحَب بناء أول حكومة "مدنيَّة" قويَّة ومنظَّمة على وجه الأرض، وكان شريكًا في بناء واحدة من عجائب الدنيا، وهي "الأهرامات"، كما تشاركت هذه العناصر أيضًا لتجعل زراعة "الكروم" أو العنب، موجودة في مصر منذ حوالي سنة 3000 قبل الميلاد، وبحسب مؤلفي معجم الحضارة المصرية القديمة، وهم نُخبة من أبرز علماء المصريات في العالم، "يمكننا أن نقرأ كلمة "إرب" الدالة على النبيذ، على جوانب القدور والسَّدادات، التي يرجع تاريخها إلى أقدم الأُسرات"[4].

لقد شكَّلت البيرة في مصر القديمة مع شقيقها "الخبز"، ثنائيًّا مصريًّا أكل منه العالم وشرب وتعالج، طوال عشرات القرون ـ وهو لا يزال يفعل ذلك إلى اليوم - الأمر الذي وقَّر فكرة شرب البيرة في الوجدان المصري منذ زمن سحيق، أي منذ استقرَّت أركان "الدولة" في فجر التاريخ، لأول مرة على ضفاف النيل، حيث أسَّست مصر أول حكومة منظمة عرفها الإنسان على الأرض، وأسَّست أيضًا ـ جنبًا إلى جنبٍ - صناعة البيرة في العالم القديم، وظلَّت صاحبة مكانة مركزية في صناعتها على طول التاريخ، الأمر الذي يجعلنا نظن أن وجود "الخمامير" أو "الخمارات" كمُتنفس قانوني لممارسة الاستمتاع بالحياة في مصر، موضوع بديهي، وجزء لا يتجزأ من الثقافة المصرية، قديمًا وحديثًا.

نحن لن نستطيع اليوم أن نفهم العالم الذي أنتج أول مشروب بيرة قبل آلاف السنين، وحملت اسم "هاكت"، على أرض مصر، إلا إذا فهمنا العقل المصري القديم، بدءًا من قناعاته الأسطورية، مرورًا بإيمانه بالعالم

4 - معجم الحضارة المصرية القديمة. مجموعة مؤلفين.

الآخر، وإيمانه بالقانون الذي كان يحكم هذا البلد المنظَّم، والذي كان يمكن اختصاره في اسم الإلهة "ماعت" وتعني "الحق والخير والعدل"، وتُجسِّد الفكرة الأولى التي ظهرت في مواجهتها الفكرة النقيض لإله الفوضى والخراب والتدمير والشر واسمه "إسفت".[5]

علينا أن نعترف أن العقل البشري قفز قفزة قويَّة إلى الأمام، بعد اكتشافه سحر البيرة، وعلينا أن نفهم أن العقلية التي شربت البيرة - لأول مرة في التاريخ - هي نفسها العقلية التي قدمت تصوراتٍ واضحة عن المساواة والعدل أمام القانون، في الحياة الدنيا، مثلما حاولت أن تُقدِّم تصوراتها عن العالم الآخر بعد الموت، وهي ذاتها العقلية التي استطاعت أن تطبق تصوراتها عن القانون، مبكرًا جدًا وبنجاح نِسْبي طبعًا، وأنْ تُعدِّل في ما توصلَّت إليه من نتائج، وهي عقلية اكتشفت لنفسها لغة ورسمتها على الجدران والنقوش، بينما كان الأوربيون - مثلًا - يغرقون في عصور الظلام، لذلك نعتبر هذه العقلية هي التي تستحق أن تصل إلى اكتشاف فكرة "الضمير" الإنساني، قبل خمسة آلاف عام، لذا فنحن بالنسبة للعالِم والأثري الأمريكي الراحل، جيمس هنري بريستد (1865 ـ 1935)، لا نزالُ في أول الطريق نحو الفضيلة، وإن كُنا الشعب الذي علَّم العالم "فكرة الضمير الإنساني".

وتحتفظ نصوص الأدب الجنائزي لمواطني مصر القديمة، وهي "إنتاج أدبي تَمحوَّر حول تجربة الموت، وما يحدث في العالم الآخر، واشتمل على ترانيم ومدائح وصلوات وتعاويذ، لمساعدة المُتوفَّى على استكمال مسيرته إلى العالم الآخر، كذلك اشتمل على رسائل للأحياء

5 - "مفهوم الشر في مصر القديمة" تأليف الدكتور علي عبدالحليم علي.

(وصايا)، ورسائل للموتى وشكاوى وسير ذاتية"[6]، بكمٍّ هائلٍ من الإشارات التي تشير إلى العناية الفائقة التي أَوْلاها المصريون القدماء لمشروب البيرة، إلى الحد الذي كان فيه إله خاص للنبيذ في الثقافة المصرية القديمة، ويدعى "شسمو"، وربَّة للبيرة هي "منقت"، إلى جوار الآلهة الأولى الخالقة "أتوم وكماتف وبتاح" وآلهة الحرب "مونت وأوبو وات ونايت" وغيرها من الآلهة.

وحتى قبل أنْ تُولَد الحضارة على الأرض بقرون طويلة، خلَّدت الأسطورة المصرية القديمة، اسم الإلهة "حتحور"، بوصفها ربَّة الحب والجمال والسعادة والخصوبة والأمومة - من ناحية - وربَّة السُّكْر والثُّمالة من ناحية ثانية، حيث عرف المصريون منذ فجر التاريخ، كيف ينتقون سلوكيات معبودة الحب عندهم، والتي كثيرًا ما وجدناها في القصص الأسطورية، مُحاربة غاضبة، لا يمكن أن تهدأ ثورة غضبها، إلا بعدما تتناول بعض "الجعَّة" أو بعض النبيذ، على نحو ما سوف نقرأ بعد قليل.

وفي حين كان الإله "أوزيريس" يقوم بعصر العنب الذي شرب منه أوَّل كأس وسَنَّ القوانين للبشر، وبيَّن لهم كيف يتعبدون ويبجلون الآلهة، اعتبرت "حتحور" - واحدة من أبرز "النساء الآلهة"- ربَّة الخصب والنَّماء والأمومة وربَّة للسُّكْر والثُّمالة أيضًا، فهي أحيانًا تعشق السُّكْر، وأحيانًا لا يمكن السيطرة على موجة غضب أصابتها من دون أن تشرب كمية مناسبة من الخمور، على نحو ما تروي لنا رئيس قسم المصريات في "متحف اللوفر" الفرنسي، كريستيان ديروش نوبلكور،

6 . الخروج في النهار – كتاب الموتى ترجمة شريف الصيفي – المركز القومي للترجمة.

في كتابها البديع "المرأة الفرعونية"، بشأن حكاية "هلاك البشرية"، وهي واحدة من الحكايات الأسطورية القديمة، التي تعتبرها كريستيان معادلًا مصريًّا لقصة "الطوفان".

وتنقل لنا الكاتبة الفرنسية واحدة من أجمل التراتيل الموجهة إلى الإلهة "حتحور"، والتي تتعامل معها بوصفها ربَّة لكل ما هو جميل وممتع وباعث على البهجة والسعادة، وهي بدون جدال التراتيل الموجودة في المعبد الصغير المقام في الجزء الشرقي بجزيرة "فيلة"، وقد كُتبت هذه التراتيل بمناسبة عودة البعيدة إلى مصر، وفيما يلي بعض المقتطفات:

"ما أبهى محياكِ،

حينما تتألقينَ في مجدكِ

وأنت فَرِحَة:

حتحور يا سيدة "سنمن" المبجلة،

إن أباك رع يتهلَّل فرحًا عندما تشرقينَ

ويمتدح أخوك شو جمال محياك

و"تحوت" القادر على أقوى المشروبات المُسْكِرة يقول لك:

"يا لك من قادرة".

(.....)

والرجال والنساء يبتهلون إليك أنْ تغدقي عليهم الحبَّ

ومن أجلك تقيم العذارى الاحتفالات ويعطينك أرواحهنَّ

أنت سيدة الثَّناء وسيدة الرَّقص

ربَّة الحبِّ وسيدة النِّساء والعذارى".

٧٠٠٠ جرَّة "جعَّة"

في الأساطير المصرية أمثلة عديدة للتجسدات المتعددة لـ "حتحور"، ومنها تجسدها بوصفها ربَّة الثُّمالة، فهي تأتي أحيانًا على هيئة عين "رع" التي غادرت بعيدًا، وأحيانًا تتحول إلى لبؤة ضارية، تنفث اللَّهب من عينيها وفمها، فطلب ربُّ الكون من "شو" و"تحوت"، اللذين تجسدا في هيئة قردين، أن يذهبا لمقابلة تلك الغاضبة المُفترسة التي هددت المبعوث "تحوت" بالقتل، ولم يألُ الأخير جهدًا في محاولة تهدئة الإلهة الغاضبة، فحاول إقناعها بكل الوسائل بالعودة إلى وطنها، وكان من بينها بالطبع إغراؤها بما يتوفر في مصر من المناخ الرائع والمأكل اللذيذ، وطبعًا وقبل كل شيء "النبيذ الوفير".

تقول كريستيان: "اتصفت "حتحور" بالقدرة على منح الآدميين الإحساس بالحب والعشق، حتى يستمر التناسل والإنجاب في الحياة الدنيا، ولذا فإننا نجد أن الاحتفال الذي كان يقام بمناسبة العام الجديد كان يتصف بالمهابة والإجلال، إذ كان يبدأ في مساء اليوم الأول من شهر "توت"، أول شهور العام، حيث كان يتجلى في هذا العيد تمثال الإلهة "حتحور"، المحفوظ في قدس أقداس المعبد، ليخرج للضياء الذي تمنحه الحياة لعام كامل، فيفيض بها من معبدها".

لقد مثلت "حتحور" في الفكر المصري القديم ربَّة للخير والحب والأمومة، مثلما اعتبرت ربَّة للسُّكْر والثُّمالة بلا منازع، وامتد تأثيرها واسعًا في عالم الأحياء وفي عالم الأموات أيضًا، فهي التي تستقبل الموتى في العالم الآخر، وكان طبيعيًا أن تنتشر عبادتها انتشارًا واسعًا بين ربوع مصر، وخارج أراضيها أيضًا، يقول الباحث محمود المندراوي،

في مقاله "الإلهة أو المعبودة حتحور"[7]، إن الا شكال التي اتخذتها "حتحور" تعدَّدت من مدينة إلى أخرى، وبسبب حب المصريين لها مثلوها في كثير من معابدهم المحلية، بعدما أضافوا لها صفات المعبود المحلي، وقد شيَّد لها الإغريق والرومان معابد في منتهى الفخامة والروعة، لا يزال بعضها شاهدًا على تلك العظمة إلى الآن، مثل معبد "حتشبسوت" الذي يعتبر معبدًا للإلهة "حتحور".

ومن بين أطرف الأمثلة على دور الإلهة "حتحور"، تأتي حكاية "هلاك البشرية"، لتعكس درجة تقديس المصريين للبيرة، حيث أنقذ ربُّ الأرباب "رع"، البشرية من الهلاك، باستخدام سبعة آلاف جرَّة مملوءة من "الجعَّة"، وضعها في طريق الإلهة الغاضبة "حتحور"، التي كانت تنتوي أن تقتل البشر جميعًا، وحينما شربت منها "حتحور" نست أمر قتل البشر، وراحت في حالة من الثُّمالة، لتصير ربَّة السُّكْر والعربدة.

تقول القصة:

"حكم إله الشمس "رع" الأرض بعد خلقها ودان له الأرباب والبشر أجمعون بالسلطة، ولكنه مع مرور الزمن تقدم به العمر وأدركته الشيخوخة، وحسب عبارات الأسطورة فقد أصبحت عظامه كالفضة وتحوَّلت أعضاؤه إلى ذهب وبات شعره من اللاذورد، وعندما نمى ذلك إلى علم أهل الأرض الذين كانوا يشعرون نحوه بالغيرة الشديدة بدأوا يحيكون ضده المكائد والمؤامرات، وكان تصرف "رع" تصرفًا حكيمًا وحازمًا إذ نادى أحد خدمه وقال له أحضر لي "عيني وشو وتفنوت وجيب ونوت"، وكذلك الآباء والأمهات الذين كانوا برفقتي عندما كنت

7 . مقال منشور على موقع "حراس الحضارة الألكتروني".

في المياه الأزليِّة "نون"، وأحضر لي أيضًا الرَّب "نون" نفسه، أحضرهم إلي بكل هدوء بحيث لا يراهم أحد من البشر وإلا انخلعت قلوبهم رعبًا وتفرَّقت نفوسهم شعاعًا، ولا تَعُدْ إلى قصري إلا مع هؤلاء الأرباب، حتى يَعرضوا علي وجهة نظرهم (...)، وجيء بجميع هؤلاء الأرباب الذين سجدوا أمام جلالته "والمشهد هنا لا يختلف كثيرًا عن أي مشهد يدور في بلاط أي فرعون". وقال الأرباب جميعًا للإله الأعظم "رع" حدثنا نَودُّ سماعك، ووجَّه "رع" كلامه لأكثرهم هيبةً وجلالًا، الإله "نون" قائلًا له: "إنك أقدم الأرباب عمرًا، وقد انبثقت أنا منك، وأنتم أيُّها الأرباب الأسلاف، أرأيتم ماذا يفعل البشر الذين أنجبتهم من عيني؟ إنهم يحيكون ضدي أمرًا ما، قولوا لي ماذا أنتم فاعلون حِيال هذا الأمر؟.. أنا لا أريد هلاكهم، قبل سماع رأيكم في ذلك". وهنا قال الإله "نون": ابني "رع"، أنتَ الإله الذي فاق أباه ومخلوقاته عظمةً ومقدرةً، فلتبقَ كما أنتَ فوق عرشك، إن الخوف والرعب الذي تبثه لمبالغ عندما تنظر بعينك المتآمرين ضدك"، وفي الحال تم ما كان في الحسبان، لقد أصيب المتمردون بالهلع عند رؤيتهم للعين المرعبة، وانطلقوا هاربين في الصحارى هائمين على وجوههم دون هدف، لكن الأرباب نصحوا "رع" بأن يُرسل عينًا لمطاردتهم فوق الأرض، ولم تكن هذه العين سوى الإلهة "حتحور"، التي رجعت من مهمتها بعد أن قتلت المتمردين في الصحارى، وكان يغمرها سرور عارم إذا ما نظرت إلى ضحاياها المضرجين في دمائهم وكأنها وحش كاسر، وحضرت لمقابلة رب الأرباب "رع"، الذي استقبلها بعبارات الترحيب والثناء، فأجابته "حتحور" قائلة: "بحياتك لقد كنت قوية الشَّكيمة بين جميع البشر، ولقد أثلج ذلك صدري كثيرًا، عندئذ تريث رب الأرباب قليلًا خشية ألا يبقى على الأرض إنسان واحد بعد ذلك،

فسارع إلى توجيه غضب "حتحور" وثورتها إلى أمر آخر، إذ أمر خادمه قائلًا: "أحضر لي بعض الرسل الذين يتميزون بالسرعة الهائلة، والذين يستطيعون أن يجروا بسرعة الظل، وبعد إحضار هؤلاء الرسل إليه في التوِّ واللحظة، قال لهم جلالته: "أسرعوا إلى "الفنتين"، وأحضروا لي كمية كبيرة من نبات الديدي، الذي يفرز داخله سائلًا أحمر، وتم استخلاص هذا السائل وخلطه ببعض الجعَّة المصنوعة من الشعير المطحون، وبدا هذا المزيج وكأنه دمٌّ بشري ملأ به حوالي 7000 جرَّة، ثم حضر "رع" بنفسه وبرفقته جميع الأرباب، (ماعدا حتحور طبعًا)، فحص هذا المزيج، وعندما بزغ نور الفجر وأَزِفَ الموعد الذي كانت "حتحور" قد حددته لإهلاك البشر جميعًا، قال "رع": "سوف أحمي البشر منها، أحضروا الجعَّة في نفس المكان الذي ستذهب إليه لقتلهم، ثم حضرت الإلهة "حتحور"، إلى ذلك المكان وأخذت تتأمل وجهها فوق سطح الجعَّة، وتذوقتها فأعجبت بها كثيرًا فأخذت تَعِبُّ منها عبًّا حتى الثُّمالة.

وما أن أنزل الإله "رع" رحمته على البشر بتلك الحيلة الخليقة بأحد السَّحرة، والتي سقطت في شباكها "حتحور" التي أصبحت ربَّة الشراب والثُّمالة. حتى أصاب الإله العجوز الكَدَر من جحود المخلوقات ونكرانها، فاعتزم التخلي عن حكم الأرض. وأحل الإله "تحوت" مكانه، وعندئذ خلق القمر، وطلب "رع" من ابنته "نوت" التي تجسدت في هيئة البقرة السَّماوية أن تحمله فوق ظهرها؛ لكي ترفعه إلى السماء، وأصيبت نوت بالدوار خلال رحلتها عندما كانت تنظر نحو الأرض، وأراد "رع" انقاذها فطلب من "شو" أبيها أن يرفعها.

"السُّكْرة" الشعائرية

في ظل هذه المتع التي تصنعها البيرة للأحياء، كان طبيعيًّا أن يقدسها المصريون القدماء، وأن تدخل شريكًا أساسيًا في احتفالاتهم الدينية، في مصر القديمة، بما فيها الاحتفالات المتعلقة بالموتى وزيارة المقابر، وقد كان المصريون - ولا يزالون - يشعرون بعظيم السعادة في الاحتفالات الدينية تحديدًا، وبنظرة واحدة إلى ما يحدث في "الموالد الكبرى في مصر" الآن، تستطيع أن تكتشف الأصل الفرعوني لكثير من عادات شرب الخمور وانتشار اللهو والرقص "والدعارة في فترات سابقة"، وهي حالة تقترب في قليل من الأحيان من فكرة "الانفلات الجماعي".

الأرجح، أن يكون المصري القديم رفض أن يتخلى بعد وفاته عن سعادته في هذه الاحتفالات الدينية، وأغلب الظن أنه أراد المشاركة في هذه الملذات الجميلة، حتى بعدما يكون قد فارق الحياة الدنيا، لقد كان المصري القديم يتوق إلى المشاركة في الاحتفالات الدينية، ولو بتمثال له يوضع في مقرالمعبد الذي يشهد الاحتفالات، حيث كان المطلوب من الأهل "الصالحين" للمُتوفَّى هو زيارة قبره في الأعياد، وتوزيع الخبز والأطعمة والجعَّة تذكارًا لروحه، وهي العادة التي تُمَارس في مصر إلى اليوم، مع حذف فقرة الجعَّة طبعًا.

وبريستد، صاحب الكتاب المؤسس "فجر الضمير"، من هؤلاء الذين يعتقدون أن المصادر التي وصلت إلى المؤرخين تدل على أن الوازع الخلقي قد شعر به المصريون الأقدمون قبل أن يوجد الشعور به في أي صقعٍ آخر من هذا العالم، مشددًا على أن أقدم بحث عُرِف عن "الحق

والباطل"، في تاريخ الإنسان عُثر عليه في ثنايا مسرحية "منفية"، تُشيد بعظمة مدينة "منف" وسيادتها، ويرجع تاريخ هذه المسرحية إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، حيث كان المصريون يظنون أنهم قادرون على مواجهة الموت بالقوى المادية، فقد كان الغرض الديني من وراء "تموين القبر"، المُتمثل في الخبز والجعَّة، بحسب بريستد هو: "هذه المُخصَّصات فضلًا عن كونها تقي المُتوفَّى شرَّ مخاوف الجوع والعطش والبرد في الحياة الآخرة، كان يُقصَد بها أكثر من أي شيء مساعدته على الاشتراك في إقامة أهم أعياد السنة، واحتفالاتها الدينية، فإن شأن المصري في ذلك شأن أي شرقي آخر يجد السرور العظيم في الاحتفالات الدينية فلم يرضَ أن يتخلى - بعدما فارق الحياة الدنيا - عن الملذات الجميلة التي تتاح له كثيرًا في مثل هذه الفرص. كما كان ينفق عليها بسخاء وكان يأمر تنفيذًا لذلك أن يُشاد له تمثال في ردهة المعبد"، وربما كان ذلك لكي يحضر المُتوفَّى بتمثاله كل الاحتفالات الدينية بعد وفاته، ويشعر وهو ميت بالاستمتاع نفسه الذي كان يشعر به بين الأحياء.

ونحن نشعر بالامتنان لرجل مثل بريستد، لأنَّه وصف لنا - معتمدًا على وثائق واكتشافات معروفة ومعلنة لبعض النصوص الواردة في "متون الأهرام" أو "متون التوابيت"- سلوكيات المصريين القدماء في أهم أعيادهم، أول أيام السنة، فبدا وكأنه المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين يصفهم منتصف القرن التاسع عشر، أو كأنه يصف مناطق نائية في مصر إلى اليوم، مع خلاف طفيف في بعض التفاصيل، يقول:

"اليوم الأول من السنة يُعَدُّ أعظم أيام الأعياد في التقويم السنوي، وكان القوم يتبادلون فيه الهدايا فرحين، كما يتوافد أهل الضياع أيضًا ي

حملون الهدايا إلى سيد ضيعتهم، وفي الوقت الذي كان فيه الفلاحون ومستأجرو الإقطاعية يُشاهَدون مزدحمين عند الباب العظيم لبيت ذلك الشريف، حاملين هداياهم لسيدهم الحي، غير مفكرين في سيدهم الراحل، كان حراس الجبانة العشرة بقيادة رئيسهم يجتازون أطراف المدينة مرة أخرى سائرين نحو إحدى خزائن الضيعة؛ لتسلُّم ما كان من حقهم أن يتزودوا به منها، ثم لا يلبثون أن يعودوا أدراجهم حاملين 550 فطيرة مستديرة، و55 رغيفًا من الخبز الأبيض و11 إناء مملوءة بالجعَّة".

وفي حين كان المصريون أول من اعتبروا البيرة مشروبًا للمتعة، إلا أننا لا بد أن نعترف أنهم كانوا أول مَن أدخلها مرحلة التقديس، حين شاركت الجعَّة دائمًا بنصيب وافر من تموين القبر، وعرفت البيرة بكونها إلهية الطابع، تحتوي - ولا شك - على روح أو إله، يقول بريستد إن السبب في اصطحاب البيرة إلى القبر يَكْمُن في أن البيرة يمكنها مساعدة الميت في أن يصير روحًا "كا": "يقول الكاهن في إجراءات الدفن المصرية القديمة: قُمْ لخبزك هذا الذي لا يمكن أن يجف، وجعَّتك التي لا يمكن أن تصير فاسدة إذ بها تصبح روحًا". فكأن هذا الطعام وهذه الجعَّة يحتويان على القوة الخفيَّة التي تُحوِّل المُتوفَّى إلى روح، كما حدث أن حوَّلت "عين حور" "أوزير" روحًا".

لقد اهتمَّ كثير من علماء المصريات بـ "المأدُبة الجنائزية"، التي تُبيِّن بعض المشاهد والزخارف ما كانت تعنيه هذه المآدب، حيث "كان على الأحياء أن يشتركوا فيها مع الجزء الذي لا يمس الجزء الخاص بالمُتوفَّى، وكانت الموسيقى والرقص مناسبان تمامًا، ويصاحبان هذا "الاتصال الجماعي"، وكان دورهما أن يدفعا المُتوفَّى بواسطة "السُّكْرة

الشعائرية"، بالخمور المُسْكِرة، لكي يتوجه نحو ذراعي "حتحور" المُرحبَّة، الخفيَّة، التي تستقبل أحضانه لكي تجعله يُولَد في حياته الجديدة". وكان طبيعيًّا لكي تتم عملية التحويل بمصاحبة هذه الأفعال أن تُوجِّه الأرملة كلامها للمُتوفَّي، قائلة:

"خُذ لتشرب،

حتى تمضي يومًا سعيدًا

في بيتك الأبدي،

من يد زوجتك (....)

في صحتك.. أنتَ المُكرَم المُبجَل".[8]

ننهي هذا الفصل بخطاب - ترجمه بريستد - موجهٍ إلى الأحياء ومكتوب على باب مقبرة "حَرخوف" الألفنتني الموطن، الذي توغل في السودان في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد، ونحت قبره في الصخور الغربية المطلة على "أسوان" الحاليَّة، يقول الخطاب بلغته البليغة والدالة على أهمية البيرة في حياة المصري القديم ومماته: "وأنتم أيُّها الأحياء الذين على وجه الأرض والمارون بهذا القبر سواء كنتم نازلين مع النهر أم صاعدين فيه، قولوا: ألف رغيف وألف إناء جعَّة (تُقدَّم) لصاحب هذه المقبرة، وإني في مقابل ذلك سأشفع لكم في العالم السفلي".

8- مقدمة "الخروج في النهار" شريف الصيفي.

الفصل الثاني

«عيد السُّكْر»

الخمور في الحياة اليومية لقدماء المصريين

(شاءت إرادةُ "رع" - رب الأرباب - أن يُشَق نهرٌ عظيمٌ في الأرضين، وأمر "رع" ذلك النهر أن يتحول ماؤه إلى خمر.. وشربت التوائم المتلاصقة من خمر النهر فسكرت، فأمر "رع" ملائكته ومعاونيه من الأرباب والآلهة، أن يأخذ كل واحد منهم شعرة من رأس "رع"، وأن تُستخدم الشعرة المُقدسة لفصل تلك التوائم المتلاصقة.. فُصلت "جبتانا" عن "جبتو"، وكذلك فصلت الذكور عن الإناث، من كل تلك التوائم، ونشأ شعبٌ عظيمٌ هم الجبتوس أو النيلوس، ومن النيلوس كانت تسمية ذلك النهر المقدس بالنيل)

الجبتانا - أسفار التكوين المصرية - مانيتون السمنودي

رأينا كيف مثَّلت البيرة والخمور جزءًا من العالم المقدس لمواطني مصر القديمة، ذلك العالم الذي لا يزال يُعرِّفه المؤرخون الغربيون بأنه أول دولة عرفتها الإنسانية، وهو كان كذلك بالفعل رغم كل مظاهر التدين البادية على كل من فيه، فهي دولة لشعب متدين "بمفهوم زمانه" ومُحب للحياة أيضًا، وإلا ما أقدم رمسيس الثالث "على الاهتمام برعاية الحدائق والمشاتل، وغرس الأشجار والنباتات وزرع البساتين اليانعة بالكروم، ليقدم للمعبود توم النبيذ والمشروبات الروحية"، ولولا هذه الدولة، ما كان المصريون القدماء استطاعوا أن يحفروا قصص احتفالاتهم وأفراحهم على جدران المعابد، وما كانوا عبَّروا عن حبهم للخمور، لدرجة أنهم اخترعوا عيدًا للسُّكْر "وسموه "عيد تيخي"، حيث: "كان يُحتفل به في اليوم الأول من الشهر الثاني، وكان من الأعياد المحبوبة التي لا يُتخلى عنها أبدًا."[9]، وإن كان البعض يظن أن عيد السُّكْر هو نفسه "عيد باستيت" الذي كان يحتفل فيه المصريون بتعاطي البيرة (يُسمى أحيانا عيد السُّكْر)، حيث يمرحون ويرقصون بجلساتهم في احتساء البيرة . وقد ذكر هيرودوت هذا العيد في مخطوطته (Herodot (II 60، على نحو ما سنعرف في هذا الفصل.

9- "الحياة اليومية في مصر القديمة"، تأليف بيير مونتيه. وفي موقع ويكيبديا (الموسوعة الحرة) الإلكتروني إشارة إلى عيد آخر كان يعتبر عيدًا للسُّكْر، حيث كان يتم الاحتفال فيه باحتساء الجعَّة، في مصر القديمة، يقول الموقع: "باستيت إحدى آلهة قدماء المصريين. عُبدت على هيئة القطة الوديعة، أُدمجت مع المعبودة سخمت في الدولة الحديثة، حيث تمثل سخمت في هيئة اللبؤة المفترسة، فعندما تغضب باستيت تصبح سخمت، وتنتقم من الأعداء ومن هو ذو خلق رديء. كانت مدينة بوباستيس (تل بسطة) مركز عبادتها. وترمز القطة إلى المعبودة باستت، ابنة معبود الشمس رع، التي كانت تصورها الرسومات على شكل امرأة لها رأس قطة. لذا تُعتبر "باستيت" معبودة الحنان والوداعة، فقد ارتبطت بالمرأة ارتباطاً وثيقًا. استأنس المصري القديم القطة لملاحظته أنها كانت تصطاد الفئران التي تدخل صوامع الغلال تأكل منها وتفسدها. قام المصري القديم بتربيتها في البيوت. وعند موتها كان يحنطها مثلما يحنط موتاه . وقد عُثر في مصر على أحد المقابر الكبيرة تحتوي على نحو مليون من القطط المحنطة، تحنيطًا بالغ الدقة والإحكام. تنم عن احترام كبير لها. وكان المصريون القدماء يحتفلون بعيد باستيت، وهو عيد يحتفلون به بتعاطي البيرة (يسمى أحيانا عيد السُّكْر)، ويمرحون ويرقصون بجلساتهم في احتساء البيرة . وقد ذكر هيرودوت هذا العيد في مخطوطته (Herodot (II 60 .

لقد قدَّس المصري القديم الخمور، تلك التي رافقت لحظات سعادته الكبرى في الحياة، وقراءة نماذج من الواقع التاريخي والاجتماعي للمصريين في تلك الفترة، والتي تجسدت في النقوش والحفائر وأوراق البردي، يمكن أن تدلنا على الدور الذي لعبته الخمور في حياة المصري القديم اليومية، ففي "معجم الحضارة المصرية القديمة"، الذي أعدَّه نخبة من كبار علماء المصريات، وُصِفَت الخمر في مصر القديمة هكذا: "كانت الخمر تُراق كالأنهار إبان الأعياد السنوية، التي كانت تجذب الزائرين، من جميع أرجاء مصر إلى أي معبد"، وهي عبارة دالة وكاشفة وتستحق التأمل بخصوص أحوال المصريين في ظل العهد الإقطاعي القديم".

لقد دفعت تطورات الواقع المصري القديم، إلى تغيير تركيبة هذا الإنسان البسيط الذي ترك الصيد وبدأ يعمل في الزراعة، التي علمته قيم الاستقرار والبناء والبحث عن النظام، وهي القيم التي منحته بدورها مهاراتٍ جديدة، كان على رأسها اكتشاف فكرة "الضمير الأخلاقي"، يقول بريستد، كما كان من بينها التجريب في كل شيء، واختبار السلوك والأدوات والطعوم الجديدة، لقد ظلت البشرية نحو مليون سنة تُطوِّر الأسلحة إلى أن وصلنا إلى مستوى متقدم جدًا فيها، لكننا وصلنا إلى فكرة "الضمير الإنساني"، المحب للخير والحق والعدالة "ماعت"، كاره الشر والخبث والكذب والفوضى "إسفت"، متأخرين، يقول بريستد: "إن فجر الضمير والأخلاق الذي عرفه البشر كان على أيدي المصريين القدماء، أي قبل 4000 سنة من الآن".[10]

10- "فجر الضمير"، جيمس هنري بريستد.

شيء ما يمكننا أن نربط به ظهور البيرة في مصر القديمة، بفكرة "العدالة الاجتماعية"، شيء أشبه بالعلاقة النظرية، حيث كان شارب البيرة البسيط قد فهم قبل آلاف السنين معنى الاستقرار وضرورة العدل على ضفاف النيل، وحين بدأت الزراعة تفيضُ عليه من خيراتها، كان يبحث عن إجابات مناسبة على الأسئلة الأكثر عمقًا، بشأن الخير والشر، والإله الذي يستطيع أن يرزق الجميعَ، والموت الذي كان لابد أن يصادف الجميع أيضًا، وعن العدالة الاجتماعية، التي تتيح للفلاح الفصيح أن يصعد بشكواه إلى حاكم الإقليم، الذي يعجب بفصاحته فيتجنب الرد عليه؛ ليستمع إلى المزيد من الشكاوى البليغة للفلاح، لقد كانت الحاجة ملحة إلى مشروب مثل البيرة، في مجتمع كهذا، على ضفاف نهر خلاب، حيث تزيد قيمة التأمل وتتضاعف أهمية الأفكار.

كريستيان ديروش ـ رئيس قسم المصريات في "متحف اللوفر" الفرنسي تكشف في كتابها البديع "المرأة الفرعونية"،[11] جانبًا مهمًا من الحياة الوجدانية عند المصريين القدماء، وعلى الرغم من أننا لم نصادف معلومة بشأن وجود أماكن مخصصة لاحتساء البيرة في مصر القديمة لدى غيرها من دارسي المصريات، إلا أن المدهش في كتاب ديروش حقًا هو ما ذكرته عن الحالة الأسرية في البيت الفرعوني، والدور الذي لعبته "الأبنية الملحقة" بأي منزل ريفي فاخر في مصر القديمة، مشيرة إلى أن هذه الأماكن الملحقة بالمنازل كانت تتضمن "زرائب" و "مرابط" و"مطابخ" و"مخابز"، بالإضافة إلى أمرين مهمين، هما: "معمل صناعة الجعَّة"، و"قبور الخمر"، لافتة إلى أنه كانت هناك أيضًا حديقة تحتوي على عنصرين أساسيين: أولًا كرمة العنب، وبجوارها

11- "المرأة الفرعونية".

تقام "المعصرة"، حيث يقوم صانعو الخمور بدهس العنب بأرجلهم، حيث يتم جمع العصير الناتج عن هذه العملية قبل تصفيته في جرار كبيرة: "حيث كان يتم التبخر من خلال سدادات مصنوعة من الطين".

تضيف ديروش: "هذه الخمور النادرة المحفوظة داخل جرارها، والتي حُدِّد اسم مصدرها كانت تخرج من الأقبية في أيام الأعياد والاحتفالات، وتقدم للمدعوين، بدون أي حدود. وقبل أن يُسكب السائل في الأقداح كان يتم تصفيته. وأحيانًا كان الخدم أنفسهم يشجعون هؤلاء الذين كانوا يبينون أنهم قد شبعوا واكتفوا:

في صحَّتك، اشرب حتى الثُّمالة

ولتمضِ يومًا مُعيدًا من أيام العيد

واستمع إلى ما تقوله صديقتك

لعلك لا تريد أن تتوقف عن احتساء الخمر".

وتُورد لنا ترجمة أخرى لما قالته عمة النبيل "باحري" الذي اعتكف بعد حروب التحرير، ولم تكن تخفي ميلها إلى الاغراق في تناول الخمور:

"أحضر لي ثمانية عشرة قَدحًا من الخمر

انظر إنني أريد أن أنتشي،

إن داخل جسدي جافٌ مثل قشة".

تقول الباحثة الفرنسية إن نساء مصر القديمة، كن يفضلن النبيذ العذب الذي كان ناضجًا، ويقدمنه لضيوفهن بالإضافة إلى مشروب آخر يعرف باسم "سرمت" تقول عنه : "كان يجلب أساسًا من ضياع

الملكات، ولا شك أن هذا المشروب كان يتذوق في البلاط الملكي، لأن أطلال عاصمة الفرعون "أمنحتب الثالث" بالملقطة في غرب طيبة، لم تقدم ـ حتى يومنا هذا ـ أية إشارة إلى وجود أية جرَّة جعَّة، ولكن على العكس قدمت ما يزيد على 300 قطعة من بقايا البطاقات الخاصة بمشروب السرمت، ويتساءل البعض عما إذا كان التمر لم يدخل في تركيب هذا المشروب المنعش دون شك".

والذي لا شك فيه هو أن العلامة الفرنسي بيير مونتيه سبق في كتابه "الحياة اليومية في مصر"، مواطنته ديروش، إلى فكرة وجود حانات في مصر القديمة، لكنه أول من أشار إلى عيد "تيخي" الذي يعتبر عيدًا للسُّكْر في مصر القديمة، وهو أشار سريعًا إلى "الحانات"، بينما كان يصف طريقة عيش المصريين القدماء، حيث كانت الخمور جزءًا مركزيًّا في أيامهم، ففي بعض الاحتفالات الدينية في منازل بعض الأغنياء، يقول مونتييه: "كان يُعرض تمثال من الخشب يرقد داخل تابوت، ويطابق جثة ميت حقيقي، وكان المُضيف يُقدم إلى كل مدعو هذا التمثال قائلًا له: "انظر هذا ثم اشرب وابتهج واستمتع بالحياة لأنك متى مت ستصبح مثله تمامًا. وهذا ما كانوا يفعلونه عندما كانوا يجتمعون في حفلات الشراب، وهذا ما يؤكده على الأقل هيرودون وبلوتارك".[12]

يقول مونتييه: "إن المصريين القدماء كانوا يتركون بسرور بالغ أعمالهم ليشتركوا في أعياد بوبسطة، فيركبون القوارب ومعهم نساؤهم يحملن الصاجات، والرجال لا يكفُّون طوال الطريق عن الغناء والرقص وتبادل الدعابات مع مَن يصادفونهم في الطريق، ويقال إنهم خلال

12 ـ "الحياة اليومية في مصر القديمة". بيير مونتييه.

العيد كانوا يشربون كميات وفيرة من النبيذ، تفوق ما كانوا يتناولونه خلال العام. وعيد تيخي وهي كلمة تعني "السُّكْر" كان يحتفل به في اليوم الأول من الشهر الثاني..".

لكن "موسوعة ويكيبيديا الحرة"، على شبكة المعلومات تقول لنا شيئًا آخر عن عيد السُّكْر، مشيرة إلى أن عيد "باستيت" ـ إحدى آلهة قدماء المصريين، عُبدت على هيئة القطة الوديعة ـ حيث كان يحتفل به بتعاطي البيرة (يسمى أحيانًا عيد السُّكْر)، وقد ذكر هيرودوت هذا العيد في مخطوطته (Herodot II 60) .

على أن الاهتمام بالخمور لم يكن وقفًا على الأعياد والمناسبات في مصر القديمة، بل كان ظاهرة عامة محببة إلى الناس، حيث عاش المصريون حياة مَرحة في الأعياد والمناسبات السعيدة: "كانوا يتعطرون ويتزينون في الأفراح والأعياد، قبل أن يتوجهوا للمعبد لتقديم القرابين، وكان يسمح لهم بتناول الشراب والأطعمة والصياح أكثر من المعتاد"، ثم ينتقل مونتيه إلى وصف مطابخ المنازل، لافتًا إلى أن "الجعَّة" كانت المشروب الوطني عند المصريين القدماء، وفي الفصل الرابع بعنوان "الخدمات المنزلية" وتناول تحت عنوان فرعي هو "المشروبات" كيفية صناع الجعَّة في مصر القديمة، وارتباطها الشرطي بصناعة الخبز وطريقة النوبيين في صناعة الجعَّة المُرة، وطريقة نقل الجرار وأنواع الكؤوس التي كانت تشرب فيها الجعَّة، وكذلك أنواع النبيذ وطرق صنعه وأماكن زراعته وطرق نقله، يقول مونتييه:

"كانت الجعَّة هي المشروب الوطني لقدماء المصريين، كانوا يشربونها في كل مكان، في المنزل والحقول، في المركب والحانات،

ولما صدر العفو عن "سنوحي" أبحر في طريق "هورس"، إلى إيتي تاوي، عاد من جديد إلى الحياة المصرية، وأخذ يشرب الجعَّة، التي كان قد حُرم منها منذ مدة طويلة، والجعَّة المصرية كانت تصنع من الشعير والحنطة والبلح، وكانت أدوات صناعتها تتكون من قوالب مثل التي يستخدمها الخبَّاز، ولكن بشكل أكبر، وسلَّة ومجموعة كبيرة من الجرار وصحاف من الفخار، وكانوا يبدأون بصنع الخبز، وكما كانوا يفعلون في المخابز، كانوا يضعون قوالب كثيرة حول الموقد، وفي نفس الوقت كانوا يجهزون عجينة تُسمَّى "واجيت" - أي الطازجة - ويسكبونها في قوالب شديدة الحرارة جدًا، ولكنها لا تلبث في القوالب إلا وقتًا قصيرًا، تلفح فيه الحرارة لباب الرغيف ويظل لبابه نيئًا، وهذا الخبز غير الناضج تمامًا يقطع إلى فتات، ويوضع في طست كبير، ويخلط بالسائل السُّكْري الناتج من نقيع البلح، ثم يقلب ويصفى وبعد قليل يختمر السائل، ولا يبقى بعد ذلك إلا تفريغه في الجرار، وسدها بطبق صغير وكمية من الجبس. بعد تجهيزها على هذه الصورة، يمكن نقل الجرار إلى أية جهة. أما الاستهلاك فقد كانت الجعَّة توضع في جرار صغيرة، تسع الواحدة منها لترًا أو لترين، والذين يتعاطون الجعَّة كانوا يضعونها في أقداح حجرية أو خزفية أو معدنية. أما الجعَّة المُرة، التي كان النوبيون يصنعونها بنفس الطريقة تقريبًا، فلا يمكن الاحتفاظ بها إلا زمنًا قصيرًا، وكانوا يَعِدُون الملك المُتوفَّى بأن يقدموا له خبزًا لا يتفتت وجعَّة لا تحمض، ومعنى هذا أن الجعَّة التي كان يتعاطاها الأحياء يمكن أن يتغير طعمها إلى الحموضة". [13]

13- مونتييه.

على أن أخطر ما قالته الباحثة الفرنسية ديروش، هو الحديث عن وجود "أماكن مخصصة لاحتساء الجعَّة في مصر القديمة" - أي اللبنة الأولى للخمامير- فضلًا عن اقتناء المصريين القدماء، وسائل تساعدهم على صناعة الخمور منزليًّا، تتحدث ديروش، بشأن أوضاع التجار في مصر القديمة، لافتة إلى أماكن كانت مخصصة لتقديم الجعَّة، في مصر القديمة، وأن هذه الأماكن كانت تعج بالفتيات، في إشارة إلى ارتباط مبكر و"ضروري" بين الخمور والدعارة، وتضيف: "كان التجار السوريون يقومون بتجارة مثمرة رابحة ويُعتبرون بمثابة أكبر موردين لفتيات اللهو والمرح في منازل احتساء الجعَّة"، وهؤلاء الفتيان كن يُدخلن البهجة والسعادة على نفوس الطلبة الشبان، الذين كانوا يُوبَّخون ويُؤنبون بدون جدوى، من جانب كَتبَة التعاليم الوقورين".

وتضيف الكاتبة أن بيوت احتساء الجعَّة كانت منتشرة في أنحاء منطقة الشرق الأدنى، ففي قانون "حمورابي"، ذكر أن: "دخول بيت من بيوت احتساء الجعَّة ينطوي على سلوك غير أخلاقي وخليع من جانب المرأة. وتعلن علينا قصة حدثت مع المواطن "ون آمون"، والتي ترجع إلى الأسرة الحادية والعشرين، في "جبيل"، وعلى الأرجح أنها امرأة من اللاتي ينتمين إلى إحدى هذه المؤسسات، والتي عرضها أمير "جبيل" على "ون آمون"، لكي يساعده على تمضية الوقت، منتظرًا أن يتمكن من دون أية معوقات من العودة ثانيًا إلى مصر، ومن الملاحظ أنه كمثل ما كان يحدث بمصر، كانت المرأة "السهلة المنال" في جبيل، يمكن أن تحضر من منطقة ضفاف النيل، "لقد بعث إلي بسكرتيره الخاص"، الذي أحضر إليَّ إناءين من الخمر وخروفًا، وأمر أيضًا بأن

تحضر إليّ "تنتماد"، وهي مغنية مصرية، كانت تعيش بجواره، بهذه المهمة: "غني من أجله، وأبعدي عنه الأفكار السوداء".

تشير الباحثة إلى أن نشاط تلك المواخير قد بلغ أقصاه، خلال حكم رمسيس الثالث، إبان الأسرة العشرين، ومما يذكر أنه في الوقت الذي أجرى فيه التحقيق مع مُقترفي مؤامرة الحريم، فقد اتُّهم أيضًا اثنان من القضاة المكلفين بنظر القضية، لأنهما كانا قد احتفلا احتفالًا ماجنًا صاخبًا مع بعض النساء المتهمات، وبعض المجرمات الأخريات، في بيت أحدهما، الذي كان مُرحِبًا للغاية، كمثل إحدى بيوت احتساء الجعَّة".[14]

ونحن نستطيع أن نؤكد احتمال وجود أماكن مخصصة لاحتساء الجعَّة في مصر القديمة، بل على العكس تمامًا، ففي تعريف "المجتمع المصري" في "معجم الحضارة المصرية القديمة"، نكتشف أن وجود الخمارات لم يكن يخرج عن المعنى العام لاعتزاز المصريين القدماء بالسُّكْر، حيث كانوا يعتبرون البيرة والخبز ضرورة ملحة لأي مجتمع، وأنه كان مجتمعًا مولعًا بالحفلات والحياة المرحة، وأن المصريين كانوا أكثر انغماسًا في الملذات، كما يشير المعجم إلى قصة متوارثة، ذكرها هيرودوت، تبين حنق الموظفين على الملك أحمس الثاني (أمازيس) لاحتسائه الخمر، وغضبهم عندما يرون عجزه عن تصريف أمور الدولة بعد سهرة حمراء".

يقول "معجم الحضارة المصرية القديمة"، تحت عنوان "المجتمع

14ـ "المرأة الفرعونية"، وتنشر الكاتبة للتدليل على صحة كلامها نقشين فرعونيين، لفتاتين كتبت تحتها التعليق الآتي: "كانت أماكن احتساء الجعَّة تعج بالراقصات وفتيات الهوى، وترى في الصورة الأولى إحدى هؤلاء الفتيات وهي تؤدي إحدى رقصاتها. وفي الصورة الثانية نرى أحد الشباب السوريين وقد أفقدته الخمر توازنه فسقط على الأرض وأخذت إحدى هؤلاء الفتيات تداعبه وتهزأ به".

المصري": "ومن واقع الحاضر، يمكننا أن نستشف لمحة عن الجانب الإنساني لهذا المجتمع. لم يكن عصرًا حديديًّا مبنيًّا على الرق، كما رأى البعض، ناسين أن قدماء المصريين لم يروا في "ماعت" النظام المستقر فحسب، بل والخبز والبيرة أيضًا، كحقٍ لكل فرد، عظيمًا أو صغيرًا، ورجالًا ونساءً، على حد سواء". وتحت عنوان "المُسكرات"، يذكِّرنا مؤلفو "معجم الحضارة المصرية القديمة"، بحكاية "رع"، الذي أراد أن ينقذ البشرية من غضب ابنته "حتحور"، فجلعها تشرب مشروبًا قويًّا، بلون الدم، أثر عليها في الحال، فراحت في سبات عميق، يقول المعجم: "بسبب هذه الخدعة دبَّر البشر أمر حياتهم، وظلت حفلات الأعياد والرقص والموسيقى والشراب، تحت رعاية تلك الربَّة العظيمة، ..، كانت الخمر تراق كالأنهار إبان الأعياد السنوية، التي كانت تجذب الزائرين، من جميع أرجاء مصر إلى أي معبد".

ويورد المعجم فقرة من أقوال هيرودوت تكشف ولع المصريين بالخمور، يقول: "في عيد بوباستس كان ما يشربه الناس من الخمر أكثر مما يشربونه طوال بقية السنة"، مشيرًا إلى قصة أحد أتباع هذه الربَّة القديمة: "الذي بعد أن انتهى من حفل ليلي لاحتساء الخمر، توجَّس من أن يذهب إلى بيته، وجاءه الوحي أن يستمر في السهر عند قبر أوزيريس، المكرَّس للسكون الشامل". كما يضيف المعجم بوضوح أن المدن الكبرى في مصر القديمة كان لها عربيدوها من الشبان: "الذين لا ينتظرون حتى تأتي الأعياد لكي يحتسوا الخمر حتى النشوة، بل كانوا يشربون النبيذ أو البيرة في جميع الأوقات، وإذ يأس شيوخ الكَتبَة وذعروا من سلوك تلاميذهم كانوا يشكون منهم قائلين:

"سمعتُ أنك تهمل استذكار دروسك،

وتكرِّس نفسك تمامًا للملذات،

فتنتقل من شارع إلى شارع، تفوحُ منك رائحة الجعَّة،

تسلبك الجعَّة جميع الوقار الإنساني،

وتؤثر على عقلك،

وهأنتذا أشبه ما تكون بالدفة المكسورة،

لا تصلح لشيء،

وجدوك تقوم بالألعاب البهلوانية فوق حائط،

ويهرب الناس من صفعاتك

آه لو عرفت أن الخمر ممقوتة،

ولو أقلعتَ عن الشراب وفكرت في شيء آخر غير أقداح الجعَّة!".

وبالإضافة إلى ما اكتشفه الفراعنة من فوائد لشربها، جعلتها بالفعل مشروبًا للصغار والكبار والأحياء والأموات في مصر القديمة، كما قدموها على ما يبدو "لعلاج بعض الاضطرابات النفسية"[15]، كانت الجعَّة -بالإضافة إلى ذلك - برفقة العمَّال الذين بنوا قبل آلاف السنين، واحدةً من عجائب الدنيا السبع، بل كانت من أهم أغذية "بُناة الأهرام"، خلال عملية البناء، حوالي 2480 - 2550 ق. م، حيث كانت مصر القديمة تعرف أربعة أنواع من النبيذ، وخمسة أنواع من البيرة، وبلغ اهتمام المصريين بها حدًا، لا يمكن تصديقه، حيث استطاعوا تبريدَها

15- نقلًا عن تصريحات منسوبة للدكتور هشام رامى، أستاذ الطب النفسي في جامعة عين شمس، خلال احتفالية "اليوم العالمى للطب النفسى الشرعى"، قال فيها "إن الفراعنة هم أول الناس فى العالم اخترعوا البيرة، وكانوا يستخدمونها لعلاج الأمراض النفسية".. موقع (اليوم السابع) الإلكتروني، تاريخ 30 أكتوبر 2017.

بـ "هواء الأنهار"، قبل أن تصل البيرة إلى محطة "الطقس الديني" المتعلق بدفن الموتى في مصر القديمة، وصارت جزءًا لا يتجزأ مما سمَّاه "جيمس هنري بريستد"، مطلع القرن العشرين، "تموين القبر"، وساعتها تحديدًا بدأت البيرة الفرعونية رحلتها ـ هي الأخرى ـ مع الخلود.

ولعل القرآن الكريم، وتحديدًا في الآية (36) من سورة "يوسف"، قد عكس جانبًا لا يستهان به عن رواج صناعة الخمور وتجارتها واحتياج المصريين إليها، يقول النص القرآني: "ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ".

ونحن نظن أن مهنة عاصر الخمر كانت شريفة ومطلوبة وموقَّرة في مصر القديمة، وأن القصص القرآني تعامل مع المسألة بمنتهى البساطة والأريحية والتفهم، بل إن الذي كان يعصر الخمر هو الذي نجا - ويا للمفارقة - من الموت، وهو نفسه الذي ذكر اسم يوسف فيما بعد عند الملك، الذي داهمته الرؤيا ذات يوم وطلب لها المفسرين، بينما زميله الفتى الآخر "صانع الخبز"، هو الذي قُتل، وأكلت الطير من رأسه، على خلفية اتهامهما بالضلوع في مؤامرة لتسميم الملك، إلى آخر القصة المعروفة، كما أن القرآن يشير إلى مواسم الزراعة في مصر، لافتًا إلى أهمية مرحلة العَصْر "عصر العنب ليصير خمرًا والسمسم ليصير دهنًا والزيتون لصير دهنًا"، قال تعالى في سورة يوسف: "قَالَ تَزرَعُونَ سَبعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُم فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأتِي مِنۢ بَعدِ ذَٰلِكَ سَبعٌ شِدَادٌ يَأكُلنَ مَا قَدَّمتُم لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأتِي مِنۢ بَعدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعصِرُونَ (49)"

تصدير النبيذ

نعرف من بيير مونتييه ومن مؤرخين آخرين، أن مصر القديمة أنتجت النبيذ، واستوردته من فلسطين وسوريا، وهو يقول في كتابه "الحياة اليومية في مصر القديمة": "ومنذ أن سعدت مصر بحكم أسرة من الدلتا، فإن هواة عصير العنب، الذي يعد هبة أوزيريس، قد زاد عددهم أكثر من أي وقت مضى، وعلى هذا فقد راجت تجارة النبيذ، وكان أحد موظفي القصر الملكي قد عُهدت إليه شؤون التموين، فكان يمون مدينة بي رمسيس بثلاث سفن مُحمَّلة بالنبيذ، منها سفينة يمتلكها هو، ...، وهذه السفن كانت تحمل واحدًا وعشرين شخصًا وألفًا وخمسمائة جرَّة مسدودة من النبيذ، وخمسين جرَّة من شراب يُسمَّى (شده) وخمسين من شراب آخر يُسمَّى با أور....، وقد وجد في الرمسيوم كمية كبيرة من جرار النبيذ المكسورة دون ريب، وقد كتب عليها بالمداد بالرسم الهيراطيقي بيانات مهمة تتعلق خاصة بمكان ورودها، وكانت كل الكروم تقريبًا موجودة في الدلتا، ولا سيما في المنطقة الشرقية، وكان يقرأ أيضًا: "نبيذ جيد من ثامن تصفية" أو "نبيذ من ثالث تصفية" أو نبيذ حلو".

الحق أن حديثًا أكثر توسعًا عن النبيذ، ورد في معجم الحضارة المصرية القديمة، حيث أفرد مساحة معتبرة لمفردة النبيذ، وكيفية اعتناء المصريين بزراعة الكروم قبل 3000 سنة قبل الميلاد لإنتاجه، لدرجة أنهم "كانوا يتركون الأنبذة تُعتَّق لمدة تصل إلى قرنين"، وكيف كان الرجال يمسكون بحبال مدلاة من عارضة خشبية، كي يحفظوا

توازنهم، ويدوسون العنب بأرجلهم ليعصروه، على وقع الأناشيد وتصفيق الأيدي، وقد جاءت عدة معلومات مذهلة في تعريف المعجم لكلمة النبيذ:

"النبيذ وصناعته: يبدو أن الكلمة المصرية لمزارع العنب مشتقة من الأصل السامي "كرم"، ولذلك استنتج علماء النبات أن الكروم وردت إلى مصر من آسيا، لابد أن هذا النبات وصل إلى ضفاف النيل منذ عصر مبكر جدًا، لأنه ازدهر هناك منذ حوالي سنة 3000 قبل الميلاد، ويمكننا أن نقرأ كلمة "إرب" الدالة على النبيذ، على جوانب القدور والسدادات، التي يرجع تاريخها إلى أقدم الأسرات، ثم استعملها الأجانب فيما بعد بأزمنة كثيرة، في الشعر الإغريقي على لسان "هيبوناكس" و"سافو". كان من الممكن رؤية عروش الكروم (التكعيبية)، ومعها أشجار التين ونخيل البلح، في جميع أنحاء مصر من عصر "مينا" إلى عصور القياصرة. في كل بساتين المعابد وحدائق النبلاء، وقد حُوفِظ على الثمار لكي لا تأكلها "الصُّفيِّرات"، وغيرها من الطيور بواسطة المصائد أو بالنواطير المُخيفة للطيور، وهكذا كان من الجَلِّي أنهم اعتنوا بها. ولما كان نمو الكروم طول السنة، كان من الممكن دائمًا أن يؤكل العنب، على المائدة ويشرب عصير العنب، بَيْدَ أنَّ موسم قطف العنب كان مقدمة لسهرات عظيمة لاحتساء الخمر كان يتمتع بها الملك ونبلاؤه، وكذلك في الأعياد. وقد نَصَّت الطقوس على وجوب تسلم الكاوات والآلهة محصول الكروم الأربعة المعينة الموجودة في أركان المملكة الأربعة. لقد سجل الكَتبَة أن السلال الكبيرة كانت تفرغ في أوعية من الحجر فيأتي الرجال ويمسكون بحبال مدلاة من عارضة خشبية، كي يحفظوا توازنهم، ويدوسون العنب بأرجلهم، على وقع الأناشيد وتصفيق الأيدي. كانوا يتركون النبيذ، في

العصور المبكرة حتى يختمر في وعاء كبير، ثم يثقبون الوعاء ويُصَّب العصير في قوارير من الفخار. ويعصرون الثُّفْلَ في كيس مستطيل الشكل، ويعلق على قائمين، ويلوي الكيس بشدة كبديل للمكبس.

كانوا يتركون الأنبذة تُعتَّق (لمدة تصل إلى قرنين تبعًا لأحد المؤلفين)، في قدور طويلة ذات قيعان مدببة، ويُحكم إقفالها بكتلة من الجبس أو من الطين، تختم بخاتم الموظف المسؤول، ولو عرفنا المزيد من المعلومات عن أنواع الأنبذة المصرية، لكان لدينا معلومات أفضل عن مختلف العمليات التي استخدمها المصريون القدماء في صنع نبيذهم، وتشمل هذه العمليات تحسين النبيذ وتحضير مختلف الأمزجة (جمع مزيج)، بواسطة أقماع ملتوية، وإضافة العسل أو البهارات.

احتسى قدماء المصريين النبيذ لدرجة النشوة، واستوردوا بعض أنواعه من فلسطين وسوريا، ثم بعد ذلك من بلاد الإغريق، ومع ذلك فقد كان محصول العنب المصري وفيرًا، (في حوالي سنة 1200 قبل الميلاد، قدَّم 21 من زراع الكروم، 1200 قدرٍ من النبيذ الجيد، 50 قدرًا من الكحول 50 قدرًا من النبيذ المتوسط النوع)، وفي العادة لا تحتفظ القبور الخاصة إلا بسجل للكروم التي يملكها الأفراد، إلا أن مقبرة "رخميرع" تضم صورة لجماعة من سكان الواحات يُحضرون الضريبة المفروضة عليهم من النبيذ.."

"وقد جـمعت أكـوام من "شـقافة" أوعـية مخازن الرامسيوم ومخازن أبيدوس، وتـل العمارنة، تحمل أسماء كـبار الموظفين وصغارهم، كُتبت هذه البـطاقات على تلك الشقافة بخط مختصر وبالمـداد: "في سنة كذا من حكم المـلك فلان، نبيذ من النوع الراقي، ثلاثة أضـعاف (أو ثمانية)،

الجودة من الأشجار السورية، من حقل الكروم العظيم "طعام مصر"، الواقع على الذراع الغربية للنيل، والتابع لمعبد كذا، لرمسيس الثاني في طيبة، أشرف على صنعه المشرف الأول للكروم فلان"، اهتم المصريون بمعرفة السنة والنوع والنبيذ والكرمة وصاحبها والشخص المسؤول. إذن فقد خرجت "الماركة المسجلة" من هناك إلى عالم الوجود.

نستطيع بنفس هذه البطاقات وبغيرها من الوثائق المتناثرة أن نرسم خريطة لأماكن زراعة الكروم الجيدة، في مصر القديمة، وقد اشتهرت أماكن معينة قريبة من فروع النيل، بوسط وشرق الدلتا، بأنبذتها. كما كانت منحدرات الحجر الجيري المواجهة للغرب بمقاطعة سينوبوليس، تنتج نوعًا ممتازًا من النبيذ. وكان الكهنة يعتبرون "ست" و"حتحور" الهي ايماو للنبيذ؛ لأنهما كانا الحاميين للمنطقتين اللتين لا تزالان أشهر الأماكن بإنتاج أجود أنواع النبيذ وأغزرها إنتاجًا. هاتان المنطقتان هما "الواحات، وبساتين زراعة الأشجار، ومنطقة مريوط ذات التربة الحصوية بغرب الدلتا، وتمتد من الحدود الليبية إلى بحيرة مريوط.

يرتبط التاريخ الطويل لهاتين المنطقتين، بتاريخ النبيذ والكروم في مصر، ويستدل على زراعة الكروم في هاتين المنطقتين من السدادات المختومة ويرجع تاريخها إلى العصور الثينية، وتحتوي النصوص المكتوبة في عصور الملوك الذين عرفوا باسم أمنحوتب والرعامسة على إشارات إلى "نبيذ الفرع الغربي"، ومع أن الإغريق والرومان كانوا يفضلون النبيذ الساحلي المسمى "تينيوتي"، فإنهم أثنوا على خفة النبيذ المريوطي الأبيض، وتزخر الآداب الكلاسيكية بالحديث عن وفرته، واليوم تنتشر في أبي المطامير كروم واسعة لمشروع ضخم قام به أحد رجال الصناعة اليونانيين، (جاناكليس)، وأحد خبراء الزراعة

السويسريين، من فاود، فتمد الموائد بأنبذة رقراقة لذيذة مزروعة في نفس الأراضي التي زرعت فيها الكروم أيام الفراعنة".[16]

واللافت أن الاهتمام بالنبيذ امتد خلال عصور مصر القديمة كلها تقريبًا، إلى أن وصل الأمر بالإدارة الحاكمة في مصر، في القرن الأول قبل الميلاد أن تقوم بتصديره إلى الخارج، وأن تستورد أنواعًا منه كذلك، وتقوم بتصديرها إلى مناطق في آسيا، حيث كانت مصر محورًا رئيسيًّا في حركة التجارة العالمية، لقد ظل تصدير النبيذ أمرًا جوهريًّا

16 ـ للتدليل على تكالب رجال الأعمال على الاستثمار في الخمور في مصر نورد هذا النموذج المبهر، نقلًا عن موقع المعرفة الإلكتروني للتعريف بشركة "جاناكليس للمشروبات" المخصخصة ومحتكرة النبيذ في مصر قبل بيعها لشركة "الأهرام للمشروبات" نهاية التسعينيات من القرن العشرين: في كتاب "لماذا تفشل الأمم" (2012)، يروى دارون عجم أوغلو، أستاذ الاقتصاد بمعهد مساتشوستس للتكنولوجيا، قصة شراء رجل الأعمال المصري أحمد الزيات لشركة الأهرام للمشروبات، كالتالي: "عام 1996 قررت الحكومة خصخصة شركة الأهرام للمشروبات، وكانت المحتكر الوحيد لتصنيع البيرة في مصر. قدم عطاء منافس من شركة كونسورتيوم الشركة المالية المصرية، برئاسة رجل التطوير العقاري فريد سعد، مع أول شركة مخصصة تأسست في مصر عام 1995. تضمن الكونسورتيوم فؤاد سلطان وزير السياحة السابق، ومحمد نصير، ومحمد رجب، أحد حيتان الأعمال، وكان لتلك المجموعة ما يكفي من الصلات، لتخفيض كبير في قيمة العطاء الذي خفضته إلى 400 مليون جنيه. ولم يكن لدى أحمد الزيات من المال ما يكفي لشراء شركة الأهرام للمشروبات، لكنه كان يمتلك المواهب التي يمتلكها كارلوس سليم. فأقنع شركة الأهرام للمشروبات بطرح أسهمها لأول مرة في بورصة لندن، واستحوذت "مجموعة الأقصر"، على الفور، على 74.9% من تلك الأسهم بسعر 68.5 جنيه للسهم. بعد ثلاثة أشهر انقسم السهم إلى اثنين، وتمكنت مجموعة الأقصر من بيع جميع الأسهم بسعر 52.5 جنيه للسهم، محققة أرباحًا صافية بنسبة 36%، والتي مكنت الزيات من شراء شركة الأهرام للمشروبات بمبلغ 231 مليون جنيه في الشهر التالي. في ذلك الوقت، كانت شركة الأهرام للمشروبات تحقق أرباحًا سنوية بحوالي 41.3 مليون جنيه مصري وتمتلك احتياطيًا نقديًا يبلغ 93 مليون دولار. وكانت صفقة لا بأس بها. عام 1999 قامت شركة الأهرام للمشروبات بتوسيع نطاق احتكارها من البيرة إلى النبيذ بشرائها شركة جناكليس المخصخصة ومحتكرة النبيذ في مصر. كانت جناكليس شركة تحقق أرباحًا كبيرة، حيث كانت تحتمي بتعريفة 3% تفرضها الدولة على النبيذ المستورد، وتحقق هامش ربح 70% على مبيعاتها. في 2002، تغير المحتكر مرة أخرى عندما باع الزيات شركة الأهرام للمشروبات بمبلغ 1.3 بليون جنيه. محققًا ربح مقداره 563% في خمس سنوات. وتحقق نيابة الأموال العامة في بلاغ جديد بشأن تلك الصفقة ضد عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء الأسبق تتهمه ببيع شركة الأهرام للمشروبات بالمخالفة للقانون، حيث كان من أحد شروط التعاقد أن يضخ الزيات مبلغ 28 مليون جنيه أخري بخلاف مبلغ البيع لتطوير الشركة وأن يحافظ علي العمالة ولكنه لم يحترم نصوص العقد ولم يضخ أي أموال بل إنه قام بتسريح جزء كبير من العمالة المؤقتة بالشركة. ومن شروط التعاقد أيضًا عدم بيع الشركة إلي أي مستثمر أجنبي بعد ذلك، وهو ما لم يلتزم به الزيات وقام ببيعها بمبلغ يفوق أضعاف صفقة الشراء. ونقلت شركة الأهرام للمشروبات الزيات من خانة رجال الأعمال إلي خانة الملياريديرات، إذ وصلت ثروته إلي ما يقارب من ملياري دولار أي ما يعادل 11 مليار جنيه مصري واحتل المرتبة الرابعة في ترتيب أغني رجال الأعمال في مصر.

في الاقتصاد المصري - على ما يبدو- قبل الميلاد مباشرة، وها هم دارسو التاريخ اليوناني والروماني يدلُّونا على مستوى اهتمام البطالمة في مصر بالتجارة في النبيذ عبر العالم، من خلال موانئ البحر الأحمر إلى بلاد البربر، أي سواحل إفريقيا، والباحث الدكتور الحسين أحمد عبدالله، توصل في كتابه "مصر والإمبراطورية الرومانية دراسة في ضوء الوثائق البردية والنقوش"،[17] إلى أن المصريين صدَّروا النبيذ، بل إنه كان واحدًا من أهم السلع النباتية المصدرة إلى جوار القمح وزيت الزيتون والزيون الخام، واصفًا تلك الفترة التي تسبق الميلاد بنحو قرنين من الزمان، وهي الفترة التي خضعت فيها مصر لحكم البطالمة، نسبة إلى مؤسسها "بطليموس الأول"، ووصلت إلى ذروتها مع آخر حكامها وهي "كيلوباترا"، المُلقَّبة بـ "ملكة النيل العظيمة"، المولودة عام 69 قبل الميلاد، التي تربعت على عرش مصر، وكانت صاحبة موائد سخية يعرفها القادة الرومان، ومنهم مارك أنطونيو، ويُحكى أنّها أنفقت أموالًا طائلة على المآدب التي أقامتها على ظهر سفينتها: "حتى أنّها أذابت أحد أقراطها وكان من اللآلئ الأكبر حجمًا في كأس من النبيذ".

لقد كشف حطام سفينة غارقة في قاع البحر الأحمر منذ القرن الأول قبل الميلاد، وانتشلت في مياه ميناء "هيبرس" عن قدرة الإنسان قبل الميلاد على نقل ما لا يقل عن 400 طن وما لا يقل عن 6 آلاف إلى 7 آلاف من جرار معبأة بالنبيذ".[18]

وعلى الرغم مما تصوره لنا الثقافة الغربية، بشأن المرأة اللعوب

17 ـ "مصر والإمبراطورية الرومانية ـ دراسة في ضوء الوثائق البردية والنقوش".

18 ـ اكتشاف بحار العالم من العصر الفينيقي إلى الزمن الحاضر ـ عالم المعرفة عدد 475.

"كيلوباترا"، وقصص غرامها بيوليوس قيصر، ثم تعلقها بمارك أنطونيو، فنحن لن نستمع إلى كل هذه الحكايات التي تروى عن استحمامها في النبيذ، أو استحمامها في اللبن لإفادة البشرة، بل سنكتفي بالإشارة إلى النبيذ، بوصفه واحدًا من أهم السلع المصدرة من مصر في فترة ما قبل الميلاد، وينقل صاحب "مصر والإمبراطورية الرومانية"، عن صاحب "كتاب الطواف"، أن النبيذ كان من السلع التي تصدر من مصر عبر موانئ البحر الأحمر إلى بلاد البربر، وبصفة خاصة النبيذ الإيطالي، والنبيذ اللاوديكي، ولكن كان بكميات قليلة، وأنه كان يُباع للملوك، وكذلك الأمر النبيذ القادم من مصر، يُباع في ميناء موزا "المخا"، وإن كان بكميات قليلة أيضًا، ذلك لأن هذه البلاد كانت تنتج كميات كبيرة من النبيذ، وكان يُباع أيضًا في "كاني" قنا ـ حصن الغراب.

الفصل الثالث

العرب والخمور قبل الإسلام

في اللغة: (خ م ر: خَمْرةٌ وخَمْرٌ وخُمُورٌ مثل تمرة وتمر وتمور، وهو العُقار، والمُدام أيضًا، يقال خَمْرةٌ صرف قال بن الأعرابي سُميت الخَمْرُ خمرًا لأنها تُركت فاخْتَمَرَتْ واخْتِمارها تُغير ريحها وقيل سُميت بذلك لمخامرتها العقل والخِمِّيرُ الدائم الشرب للخمر، واخْتَمَرتِ المرأة لبست الخِمَارَ والمُخَامَرةُ المخالطة واسْتَخْمَرَهُ استعبدَه).[19]

19- انظر: "خمر" في "لسان العرب" و"مختار الصحاح"، كما أن صاحب "القاموس المحيط" مجد الدين الفيروزآبادي، المُتوفَّى عام 1415 وضع كتاب: "الجليس الأنيس في أسماء الخندريس"، وذكر فيه مئات من أسماء الخمر عند العرب، ومنها "الراح" و"المدامة"، و"المدام" والرحيق" و"الصافي" "العتيق" و"الكميت"، "المشعشعة" و"الصهباء" و"الشموس" و"الخندريس" و"الحانية" و"الحُميّا"، و"المعتقة"، وغيرها..".

هكذا تعطينا اللغة العربية الفصحى، مجالًا واسعًا للحديث عن معاني الخمر ودلالاتها المتعددة في التراث العربي، بما يعني أنها كانت مفردة "حية" ومتجددة في الذاكرة اللغوية، فـ "الخَمَرُ مِنَ النَّاسِ: جَمَاعَتُهُمْ وَكَثْرَتُهُمْ"، وخَمَرُ الغَابَةِ: شَجَرُهَا الكَثِيرُ الْمُلْتَفُّ، وخَمَرَهُ فِي بَيْتِه: أي سَتَرَهُ، والعُقَارُ تعني الخمر، والعقار من كل شيء: خيارُه، وهي أيضًا "الكَرْم"، وبالتالي فأنت أمام مفردة محيِّرة، لأن كثيرًا مما تدل عليه إيجابي جدًا، ولا يمت إلى ثقافة التحريم بأي صلة، لدرجة أن "الخَمَرُ من الناس ـ أي اجتماعُهم وكثرَتُهم" تعتبر واحدةً من أعرق الفضائل التي تمتعت بها الإنسانية على الإطلاق.

الحق أننا رأينا أن نغامر بمحاولة قراءة ثقافة الخمور في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، على الرغم من أننا نعلم أن المنشور حول ثقافة الخمور قبل الإسلام ظل لقرون طويلة محكومًا بما رواه الرواة والإخباريون العرب، وهؤلاء كانوا طبعًا يعرفون قيمة ما يكتبون وتأثيره في الأجيال اللاحقة، مثلما كانوا يعرفون لمَن يكتبون ولماذا، ولهذا رأينا -قبل أن نجوس في التراث المنقول - أن نتجول بين فصول التاريخ التي تعتمد على النقوش العربية القليلة الباقية من فترة ما قبل الإسلام، لعلنا نعثر على دليل "حقيقي" يكفينا لكي نعيد النظر فيما هو سائد في الثقافة العربية الرسمية اليوم، من أن العرب وإن كانوا عرفوا شرب الخمر قبل الإسلام، إلا أن الفكرة السائدة "الخاطئة" عنهم أن: "الكرم لم يكُن شجرتُهم"، على حد تعبير ابن خلدون.

الحفائر القليلة، التي تعتبر السبيل الوحيد إلى معرفة تاريخ حقيقي للثقافة العربية قبل الإسلام، تقول لنا إن العرب عبدوا إلهًا قديمًا يدعى "ذو الشرى"، أي سيد الجبال، أحد آلهة العرب، ووفق جواد علي، كان

يتم التقرب إليه بشرب الخمور، وأطلق اسمه على مناطق خصبة في أرض العرب الجدباء[20]، مثلما عرفوا آلهةً تكره الخمر، مثل الإله "شيع القوم"، إله القمر عند "الأنباط"، ويعتبر حامي القوافل التجارية، وقد جاء تعريفه في كثير من هذه النقوش، مصحوبًا بعبارة "الذي لا يشرب الخمر"، على النقيض – مثلًا - من ديونيسوس، أو باكوس أو باخوس في الميثيولوجيا الإغريقية[21].

الباحث والشاعر الفلسطيني زكريا محمد من أشهر من خاضوا في الأساطير الدينية التي سبقت الإسلام، وتحدث في كتابه: "ديانة مكة في الجاهلية: الحُمْس، الطّلْس، الحِلّة"، عن زوايا غير معروفة في تاريخ الأديان العربية قبل الإسلام، من خلال طوائفها الدينية الثلاث، لافتًا إلى واقعة ارتبطت بواحدة من أشد طقوس ما قبل الإسلام روعة وإبهامًا. وهي واقعة حكاها قليل من الرواة والإخباريين العرب القدامى، عن أسطورة (سرقة غزال الكعبة الذهبي)، قبيل البعثة المحمدية، تلك الحادثة التي أدت إلى اشتباك أهل مكة منقسمين إلى حلفيْن متعارضيْن، لأن أحدًا ما سرق غزال الكعبة الذهبي، بإيعاز من الشخصية المعروفة في التاريخ الإسلامي باسم "أبولهب"، فقط من أجل الحصول على المزيد من الخمر، حيث تكشف هذه الحكاية الأسطورية مدى انتشار الخمور بين العرب بصورة واسعة قبل الإسلام، في شبه الجزيرة العربية عمومًا، بل في ربوع قريش نفسها خصوصًا، ولذلك رأينا أن ننقل جانبًا من هذه الحكاية الأسطورية، على نحو ما وردت في كتاب "المنمق في أخبار قريش"، لمحمد بن حبيب البغدادي.

---

20 ـ جواد علي "تاريخ العرب قبل الإسلام".

21 ـ إله الخمر عند الإغريق القدماء، ملهم طقوس الابتهاج والنشوة.

يمكن اختصار الحكاية على النحو التالي:"مقيس بن عبد قيس بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم، كان بيته مألفًا لشباب قريش ينفقون عنده ويشربون، وكان منهم أبو لهب والحكم بن أبي العاص والحارث بن عامر بن نوفل، والفاكه بن المغيرة، وقيس بن سويد، وكان قيس أخا عامر بن نوفل بن عبد مناف لأمه، وأمهما كهيفة من بني جندل بن أبير بن نهشل، وكان حليفا لهم، وأبو مسافع الأشعري حليف بني مخزوم، وديك ودييك من خزاعة يخدمانهم، واجتمعوا في بيت مقيس وله قينتان يقال لهما أسماء وعثمة، فتغنت أسماء وقد نفذ شرابهم بشعر رجل من بليّ:

أبوهة كري الكأس بين صحابتي فإن نداماي لديك عطاش
فإن يك يوم لم يتم نعيمه وزال ضحاه فالدموع رشاش
فيا رب يوم قد شهدت وليلة لها نشوات جمّة ومعاش
خلوت بها قد مات نحس نجومها نداماي فيها عامر وخداش

قال أبو المنذر: عامر وخداش ابنا زهير بن جناب الكلبي:

إذا غلبت لبّيهما الخمر وانتشت مفاصل لذات معا ومشاش
وجدتهما لم تظهر الخمر فيهما إذا قيل أحلام الرجال فراش

وقد كان قال لهم: ديك ودييك، إن عيرًا قد أقبلت من الشام تحمل خمرًا، فأناخت بالأبطح فقال أبو لهب: ويلكم أماعندكم نفقة؟ قالوا: لا والله! قال: فعليكم بغزال الكعبة! فإنما هو غزال أبي، فقاموا فانطلقوا وهم يهابون وقد أصابتهم ليلة باردة ذات ظلمة ومطر، حتى انتهوا إلى الكعبة وليس حولها أحد، فحمل أبو مسافع وأبو لهب الحارث بن عامر على ظهريهما حتى ألقياه على الكعبة، فضرب الغزال فوقع، فتناوله

أبو لهب ثم أقبلوا به، فقال أبو لهب: قد علمتم أن الغزال غزال أبي ولي ربعه، فأتوا منزل ديك وديبك فكسروه فأخذوا الذهب وعينيه وكانتا من ياقوت، وطرحوا ظرفه وكان على خشب في منزل شيخ من بني عامر بن لؤي، فأخذ أبو لهب العنق والرأس والقرنين ودفع القرطين إليهم وقال: هذان لأسماء وعثمة، وانطلق فلم يقربهم، وذهب القوم فاشتروا كل خمر كانت بالأبطح، ثم أقبلوا به إلى أصحابهم فشربوا وقرّطوا الشنف والقرط القينتين، فمكثت قريش أياما ثم افتقدوا الغزال، فتكلموا فيه وأعظموه، وكان أشدهم فيه كلامًا وأجدّهم عبد الله بن جدعان، وتكلمت قريش فلم يبلغ أحد مبالغته وكان يقوم فيقول: أشهد أنه لم يجترئ عليكم غيركم ولم يسرق الغزال غيركم، وأيمُّ الله لئن لم ينهَ حلماؤكم سفهاءكم لتنزلنّ بكم النقمة! فلما أكثر قال له حفص بن المغيرة:

قد أكثرت في أمر الغزال ولست أولى قريش به، إنما هو غزال عبد المطلب وهذا الزبير بن عبد المطلب وأبو طالب لا يتكلمان وما أبو لهب عندي بخليّ منه فأكفف!"

وهكذا تطول الحكاية لتشير إلى أن أحلاف قريش تجمعوا وضبطوا جانبًا من هذا الغزال الذهبي الثمين، والذي كان يرتبط عندهم بطقس ديني، وتمكنوا من معرفة هؤلاء الذين ارتكبوا جريمة السرقة، ما اضطر أبولهب إلى الفرار والهروب من قريش، خوفًا من التنكيل به.

زِقٌّ خمر

جانب آخر مهم، أشار إليه الباحث والمفكر العراقي، فاضل الربيعي، في كتابه "غزال الكعبة الذهبي.. النظام القرابي في الإسلام"، لافتًا في فصل بعنوان "قصي وأسطورة بيع مفاتيح الكعبة مقابل زق خمر"، إلى واقعة تاريخية أخرى مهمة، تشير إلى صراع خفي على السلطة الدينية في مكة، بقيادة قصي بن كلاب،[22] من ناحية، وتشير من ناحية أخرى إلى انتشار ثقافة الخمور قبل الإسلام في مكة بصورة مدهشة، لدرجة أن سعرها في هذا الوقت وصل إلى أثمان باهظة، لدرجة أن قصي - في هذه الحكاية - استعاد مفاتيح البيت الحرام، من أبي غبشان الخزاعي، مقابل زِقٍّ من الخمر.

ينقل زكريا محمد عن الفاكهي في "أخبار مكة": "ثم بعث المفاتيح مع ابنه عبدالدار، فوقف بها عند البيت وراح ينادي: يا بني إسماعيل، هذه مفاتيح البيت قد ردَّها الله عليكم، فبقيت السِّدانة فيه وفي بنيه من بعده. إن الإطار التاريخي لصراع القبائل العربية حول الكعبة يكشف لنا عن طبيعة هذا البعد في أسطورة شراء المفاتيح، إذ كانت ولاية البيت لبني إسماعيل ومفاتيحه بأيديهم إلى أن غلبتهم على ذلك جُرهُم، فاستولت على البيت بعد وفاة نابت ابن اسماعيل، (نبايوت في التوراة).

وورد في كتاب "الأوائل" لأبي هلال العسكري شعر قيل في هذه

22- قصي بن كلاب بن مرة، هو الجد الثاني لشيبة بن هاشم المشهور باسم عبد المطلب، وهو الجد الرابع للنبي محمد، حصل على نفوذ واسع في مكة، ويعتبر أشهر رئيس في قبيلة قريش ما قبل الإسلام. وانظر أيضًا "النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية" الجزء الأول ص 262.

الواقعة، ومنه قول أحدهم:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكـرت بزِقٍّ خمر فبئست صفقة البادي

باعت سدانتها بالخمر وانقرضت عن المقام وظل البيت والنـادي

وقال آخر:

أبو غبشــان أظلم من قصي وأظلم من بني فهر خزاعـــة

فلا تلحوا قصيًا في شـــراه ولوموا شيخكم إذ كان باعـــه

وقال آخر:

إذا فخرت خزاعة في قديــم وجدنا فخرها شرب الخمـــور

وبيعا كعبة الرحمــن جمعًا بزِقٍّ بئس ما افتخر الفجـــور

يستنتج الربيعي أن السرديات العربية التقليدية سعت دون مبرر إلى وضع مروية "سرقة غزال الكعبة"، في إطار وجود جماعة طائشة، تعبث بمقدسات قريش، لمجرد اللهو، وهذا ما يسيء فهم الحكاية من وجهة نظره، حيث يعتقد الربيعي أن الحكاية تتصل بوجود صراع خفي في ذلك الوقت قبيل الرسالة المحمدية بقليل، جوهره البحث عن دين عظيم، والرغبة في التخلص من الديانات الصغيرة المحلية السائدة، يقول: "إن سائر الإخباريات العربية، ثم الإسلامية، لا تقدم تصورًا تاريخيًّا صحيحًا عن مغزى وجود الغزال في الكعبة، ولا القبيلة التي دفنته، فتارة هي خزاعة وتارة أخرى هي جُرهُم، وتارة هو بابك الخرمي، وفي روايات أخرى هو هدية من ملك التبت، كما أن الزج بأسماء بعض ملوك فارس، والزعم أن أحدهم هو من أهدى الغزال الذهبي للكعبة، وفي روايات أخرى هو نجاشي الحبشة، يجعل من الخلط والاضطراب أمرًا غير قابل للتفكيك".

إذا قبلنا فكرة تقسيم جغرافي لشبه الجزيرة العربية إلى "العربية السعيدة" في الجنوب أي اليمن، والعربية الحجرية، وعرب الشمال، علينا أن نُقِر بأن حفر قصة الخمور على الطين في "بابل" القديمة، كان ربما أسبق من اكتشافها في مصر القديمة، ويقول علماء الآثار، إن هناك "ختم مجوَّف"، وجد في مقبرة الملكة السومرية شبعاد (2500 ق.م)، يظهر عند طبعه على الطين مأدبة تُشرب فيها "البيرة" باستخدام القصب من آنية كبيرة لتجنب الرغوة كريهة الطعم على سطح البيرة". كما أن لوحًا طينيًّا يسجل تعليمات صنع البيرة عُثر عليه في جنوب العراق، ويعود إلى 3100 قبل الميلاد، ما يجعلنا نرجح اكتشافها هناك قبل اكتشافها في مصر بفترة ليست طويلة، حيث تعج آثار حضارات ما بين النهرين بمئات الألواح الطينية والقطع الأثرية التي تسجل طرق ووسائل صنع البيرة وشربها، وتُصوِّر مجالس الشراب.

لقد أَوْلَت شريعة الملك حمورابي (1792 ـ 1750 ق.م) المدونة على مسلة شهيرة ـ تعتبر أشهر الآثار البابلية على الإطلاق ـ اهتمامًا خاصًا بالخمر، وأوردت قوانين تفصيلية لتنظيم صناعتها، وقواعد لساقيات الخمر، وعقوبات قاسية بحق من يغشها، بينما تقول "الأسطورة السومرية" الشهيرة، إن الإله "إنكى" فكر وهو سكران في خلق الإنسان ليحمل عن الآلهة العناء ويقوم بخدمتهم، بعدما شعرت الآلهة بالإرهاق ذات يوم، من كثرة الأعمال الموكلة إليهم، فدعاهم الإله إلى حفل كبير حضره كل الآلهة، وكان الحفل من أجل خلق الإنسان.

وفي حين منح الوجدان العربي مفردة "الخمر"، كل هذه الدلالات، فإن الأدب العربي وخصوصًا الشعر توقف عند "باب الخمريات" طويلًا وعميقًا، ولعل بيت أبي نواس الشهير: "دع المساجد للعباد تسكنها وهيا

بنا لساقي الخمر يسقينا"، يعد نقطة في بحر الخمور التي شربتها القريحة العربية من قصائد أبي نواس ومن قصائد أغلب شعراء العربية القدامى، تمجيدًا للسُّكْر والسكارى، واحترامًا لقيمة العربدة وتشريفًا لمعنى المجون، وهو ما توقف عنده كثيرٌ من الباحثين، الذين لم يقبلوا أوائل القرن العشرين، فكرة أن العرب التي تفننت في الغناء للكأس والراح، طوال تاريخهم، لم يكن لهم ميل إلى الخمور، أو أن "الكَرم لم يكن شجرتهم"، بما يتناقض تمامًا مع كثير من تراثهم وأشعارهم ونصوصهم النثرية المعروفة، والتي وصلتنا على الرغم من حرص الكثير من المؤرخين، على إخفاء جوانب في الثقافة العربية، لا تتفق وتصوراتهم عن صحيح الإسلام.

ومن بين الكتب التي لم تقبل – نظريًّا - ومنذ وقت مبكر، فكرة أن عرب الجاهلية كرهت الخمر، يأتي كتاب "الصعلكة والفتوة في الإسلام" لمؤلفه أحمد أمين، مشيرًا إلى أنَّ واحدة من أهم أوصاف "فتى الجاهلية" أنه: "كان إذا فرغ من الجد ودعا داعي اللهو فهو في الحانات يشرب، وندماؤه أحرار كرام، تتلألأ ألوانهم وتُشرق وجوههم، وتغنيهم مغنية، لابسة بُرْدًا أو ثوبًا صبغ بالزعفران . فالفتوة في نظره ونظر أمثاله شجاعة وكرم وإتلاف للمال في الجد والهزل، وعدم الاعتداد بالحياة في سِلْمٍ أو حرب".

أحمد أمين يرسم صورة الفتــى في الجاهلية على هذا النحو، معتمدًا على ما ورد في المعلقة الشــهيرة للشاعر الجاهلي "طــرفة بن العبد"، والتي يقول مطلعها "لِخَولة أطْلالٌ بِبُرقَة ثَهمَد .. تلوح كــباقي الوشم في ظاهر اليد"، ولم لا وهي المعلقة التي تحتفل بالخــمر والــكؤوس والشاربين، وتعتبر السـُّكْر واحدًا من فــضائل الفــرسان المحاربين، كما

كانت تتصوَّره القبيلة العربية قبل الإسلام، وهو نص طويل يصور حالة بعض الشعراء "الصعاليك" في الجاهلية يقول فيها الشاعر صراحةً وبمنتهى الفخر:

"فإن تبغني في حلقة القوم تلقني ... وإن تلتمِسني في الحوانيتِ تصطدِ

وإن يلتقِ الحيُّ الجميعُ تلاقنـــي ... إلى ذروة البيت الشريف المُصمَّد

ما زال تشرابي الخمور ولذتـــي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي

ولولا ثلاثة هن من عيشة الفتـى ... وجدك لم أحفل متى قام عـودي

فمنهن سبقي العاذلات بشربـــة ... كُميت متى ما تغل بالماء تزبـد

على الرغم من أن كتاب "في الشعر الجاهلي"، لعالمنا الجليل الراحل طه حسين، نسف كل ما يُروى من أيام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل بذلك من الشعر المنسوب إلى الأقدمين نسفًا صريحًا، معتبرًا الغالبية العظمى من الشعر الجاهلي بما فيه المعلقات، تم اختراعها نظْمًا بعد الإسلام، ساخرًا من ذلك الشعر العربي الفصيح المكتوب بلغة قريش وعلى حرفها، والمنسوب لآدم، أبو الأنبياء، وقد نسف كل ما يروى عن عاد وثمود وطَسم وجديس وجُرهُم والعماليق"، معتبرًا إياها موضوعاتٍ لا أصل لها.

أقول على الرغم من كل ذلك، إلا أن طه حسين لم يجد سوى مُعلقة "طرفة" التي تحتفي بالخمر بالـذات، وتمتدح نموذج الفتى العربي الشجاع ذي النسب العريق في الجاهــلية، الفتى الذي لا يجد سلواه إلا في الخمر، ويدلل طه حسين على أن هذه الــروح الملحدة بطبعها في نص طرفة، تنتمي إلى شاعر لم يعرف الإسلام حقيقة، واعتبرها - بسبب

هذه الروح الملحدة بالذات - لا يمكن أن تكون مستعارة أو منحولة أو مفتعلة، وأضاف: "ما فيها من شخصية ظاهرة البداوة، واضحة الإلحاد، بيِّنة الحزن واليأس والميل إلى الإباحة في قصد واعتدال، في هذا الشعر شخصية بارزة قوية لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها مُتكلفة أو مُنتحلة أو مُستعارة.. هذه الشخصية تمثل رجلًا فكَّر والتمس الخير والهدي فلم يصل إلى شيء، وهو صادق في يأسه، صادق في حزنه صادق في ميله إلى هذه اللذات التي يؤثرها".

الأحامرة الثلاثة

في الطريق نفسه، يرشدنا أحد أعلام باحثينا العرب، الدكتور جواد علي، في سفره الجليل "تاريخ العرب قبل الإسلام"، بأن العرب في شمال الجزيرة العربية أو في جنوبها لم يكونوا أمة معزولة، مُنكمشة على نفسها، بل انفتحت على طرق التجارة مع العالم الخارجي، فصَّدرت واستوردت، وبالتالي نستطيع أن نستنتج أن أغنياء العرب وتجارها الكبار - على الأقل - شربوا الخمور[23]، وأنها أصبحت جزءًا من عاداتهم وتقاليدهم، وفي فصل بعنوان "طبقات العرب وأنسابهم" يقول علي بشأن أحد عادات العرب القدماء، أي قبل الإسلام بقرون، إن العرب كانوا يتوقفون عن شرب الخمر أو غسل الرأس، إذا كانت القبيلة في حالة طلب للثأر، فهم يتركون الطيبات من مأكل ومشرب، مستشهدًا بالذي رُوي في قصة طلب امرئ القيس الكندي ثأر أبيه من بني أسد، وقد آل

23- يُعتقد أن العرب استوردوا الخمور من خارج الجزيرة العربية، قبل الإسلام، وإذا صحَّ ما جاء في معلقة الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في قوله:"ألا هبّي بصحنك فاصبحينا.. ولا تبقي خمور الأندرينا". فإن "أندرين" ـ شمال سوريا ـ ربما كانت إحدى هذه الأماكن التي كان العرب يستوردون منها الخمور.

على نفسه "ألا يمس رأسه غسل ولا يشرب خمرًا حتى يثأر لأبيه. فلما ظفر ببني أسد قتلته وأدرك ثأره حل ما حرم على نفسه"، وينقل من "بلوغ الأرب" من شعر قيس بن الخطيم شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية، قوله:

ومنا الذي آل ثلاثين ليلة عن الخمر حتى زاركم بالكتائب

ونقل لنا جواد علي أيضًا قصصًا عن المؤرخ والجغرافي والفيلسوف اليوناني القديم "استرابون"، تكشف عن صلات المصريين بالعرب، يقول إن استرابون انتزعها من المصريين أنفسهم، منها حكاية تقول إن الإله "أوزيريس"، أحد آلهة مصر، ذهب إلى مدينة تدعى nisa وهي من مدن "العربية السعيدة"، يقصد اليمن، فرأى فيها "الكرمة" لأول مرة، فتعلم منها زراعتها وشرب النبيذ.

وفي كتابه "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"[24] يعرفنا الدكتور جواد علي على جانب مهم من دلالات كلمة الفتوة قبل الإسلام، التي يصادفها القارئ في بعض كتب الأخبار العربية القديمة:

"يريدون بذلك جماعة من أبناء الأسر، عاشت عيشة شباب وعبث، تلهو وتشرب، وتنفق وتعطي، وتغيث، وتتسابق، وتقتل وقتها في اللذة والاستمتاع وفي الإنفاق على الجسد، على نحو ما يفعله أبناء الطبقة المُترفة في كل وقت. وقد كانت لها نجدة وشهامة، إذا استنجد بأحدها هبَّ لنجدة المستنجد ودافع عنه. والحياة عند بعض الناس: خمر ولحم وخلوق. فهي متع الحياة عندهم. قال الأعشى:

24 ـ "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، جواد علي، جامعة بغداد 1993.

إن الأحامرة الثلاثة أهلكــت مالي وكنت بها قديما مولعًا
الخمر واللحم السمين وأطلي بالزعفران فلن أزال مبقعـًا

ولا يظننَّ أحد أن دخول العرب في الإسلام منع تناولها على نطاق واسع، لأن الكثير من الروايات المنسوبة لمؤرخين مسلمين، تثبت عكس ذلك، فروايات فتح العراق في عهد عمر بن الخطاب تحكي عن الفارس المجاهد أبي محجن الثقفي، الذي جَلده الخليفة لشربه الخمر فأعلن توبته، ثم عاد إليها فمنعه قائد الجيش سعد بن أبي وقاص من المشاركة في معركة "القادسية"، وقد بلغت شدة تعلقه بالخمر أن أوصى ولده:

إذا متُّ فَادفِنِّي إلى جَنبِ كَرمَــةٍ تَروِي عِظامِي بَعد مَوتي عُرُوقه
ولا تَدفِنَـنـي بالـفَـلاة فـإنَّـنـــي أخـافُ إذا مَـا مِـتُّ أن لا أذُوقَها

وإذا كنا فضلنا أن نقرأ التراث الراسخ في وجدان الناس، فإننا لم نجد أنفسنا بحاجة إلى المسار الذي مشى فيه الأديب والباحث اليمني علي المقري، في كتابه اللافت "الخمر والنبيذ في الإسلام"، علمًا بأننا نُقدر الجهد المبذول في هذا الكتاب كل التقدير، فقد استند إلى نص إمام الظاهرية "ابن حزم الأندلسي" حول معني إجماع الفقهاء وشروطه وجواز خرقه، من خلال آراء عدة متقاربة ومتفاوتة، لكشف ذهنية التحريم التي اعتبرت الخمور حرامًا، لافتًا إلى أن "خرق إجماع الفقهاء"، في مسائل كثيرة منها الخمر، كان بقدر ما هو قاعدة دينية بقدر ما هو ذو دلالة على الحرية الشخصية التي يفتقدها المسلم اليوم، ولا سيما إذا كان متدينًا، لافتًا إلى أن ذهنية التحريم في الثقافة العربية تغاضت عن عدم وجود نص قرآني صريح في تحريم الخمور، وعن كثير من

الأحاديث الشريفة، التي تقدم موقفًا ليس فيه من تحريم الخمور شيء، مشددًا على عدة ظواهر ثابتة في التاريخ الإسلامي، مثل تعاطي عدد من أبناء الخلفاء الراشدين والصحابة الخمور، ويضيف: "شرب الخمر ابن الخليفة أبو بكر واسمه محمد، ومحمد بن أبي حذيفة مكفول عثمان بن عفان، وأبناء الخليفة عمر بن الخطاب وهم ثلاثة: عبد الله، وعصام، وعبد الرحمان، وهذا الأخير حدّه أبوه - أي طبَّق عليه الحد - في الشراب حتى مات".

يلحظ قارئ الشعر العربي لا شك أن الخمور تكاد تسيل من كتاب الشعر العربي القديم، وأن امتداح السُّكْر والعربدة والمجون، وصل ذروته بعد الإسلام، أيام أبي نواس "المُتوفَّى في بغداد عام 814 ميلادية"، وله قصائد كثيرة مشهورة، وأبيات محفورة في الذائقة الشعرية العربية، منها:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعني من الكُنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر

وقوله:

يا أحمد المرتجى في كل نائبةٍ ... قم سيدي نعصِ جبار السموات
فقام والليل يجلوه النهار كما ... جلا التبسم عن غرِّ الثَّنياتِ

أقول، قارئ الشعر لا شك يلحظ أن الثقافة العربية عرفت - دائمًا للأسف - تلك الازدواجية التي تحرم الخمور من ناحية، لكنها لا تتوقف عن تعاطيها وامتداحها تحت "مسميات" مختلفة، من ناحية أخرى، وربما كانت هذه الازدواجية سببًا في اتهام كثير من الوُعَّاظ بتمجيد الخليفة الهادي وأخيه الرشيد، على هذه القسوة التي أبدياها تجاه

"الزنادقة"، إنهم الوُعَّاظ الذين قال فيهم عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي، في كتابه "وُعَّاظ السلاطين":

"إنهم لا يجدون عذرًا لهؤلاء المساكين، ولا يريدون الاستماع لحججهم، والزنادقة كغيرهم من الناس، لم يعتنقوا هذا المذهب من تلقاء أنفسهم، فهم إما ورثوا ذلك عن آبائهم، أو انجرفوا فيه بتأثير محيطهم الاجتماعي،...، والغريب أن بعض الفقهاء ذهبوا إلى أن الزنديق يجب أن يُقتل ولا تقبل توبته إذا تاب، فهؤلاء الفقهاء لا يُعاقبون الذين بذروا بذور الزندقة في الناس، إنما عاقبوا معتنقيها".

ويورد لنا الوردي جانبًا مما كانت تعانيه المدن العراقية، وقد أدى استمرار أهل العراق في تناول الخمور عبر التاريخ الإسلامي، إلى أن: "سَكِر ذات يوم من عام 350 هجرية عباسي وعلوي "سني وشيعي"، فتنازعا على الشرب، وقُتل العلوي، فثارت العامة وعظمت الفتنة، وتحيّز الشرفاء كل فريق نحو الجانب الذي ينتمي إليه، فاضطر مدير الشرطة أن يعاقب المهيجين من كلا الجانبين، وأمر بأن يقرن العلوي بالعباسي ويغرقا في دجلة نهارًا.. فهدأت الفتنة".

"توبة" جحا

عرفت العرب إذن شرب الخمور قبل الإسلام وبعده، فقد عرفته الشام قبل الإسلام بقرون طويلة، كما عرفه أهل بابل والمصريون أيضًا قبل الإسلام بفترة كافية، ليستقر في الوجدان الجمعي ويصبح جزءًا من سلوكيات الناس وعاداتهم، وبالتالي فإن تصوير هذه البلاد وقد امتنعت عن تناول الخمور، بمجرد دخول الإسلام أراضيها، خلال القرون الهجرية الأولى وبهذه السرعة الميكانيكية، يعتبر تصويرًا مجافيًا للواقع والشواهد التاريخية من ناحية، ومنافيًا للعقل والمنطق من ناحية أخرى، لأن شخصية واحدة من بين عشرات الشخصيات التي رُويت على لسانها النوادر والمُلَح، تكشف كم كان "ابن خلدون" ـ العالم المؤسس ـ لم يكن منصفًا ولا عالمًا في هذه النقطة، وهذه هي النوادر والمُلَح والطرائف العربية، التي تحكي عن القرون الهجرية الأولى، تكشف كم كان المجون والسُّكْر أمرًا جديرًا بالتأمل وقتها، لا في الشعر العربي القديم فقط، ولكن في النوادر والمُلَح والحكايات الشعبية.

لنا أن نتوقع حجم الصدمة الحضارية التي عاشتها جيوش المسلمين في مصر، وفي عدد من البلدان التي ضمتها الجيوش الإسلامية في آسيا وأفريقيا إلى الدولة الإسلامية الوليدة، خلال هذه الحقبة المعروفة بالفتوحات الإسلامية، لقد اكتشفوا الأنهار التي تجري والحدائق الغنَّاء، والمزارع الشاسعة، واكتشفوا جوًّا من النعيم لم يكن متاحًا لهم في صحراء شبه الجزيرة العربية، فكان أن اندمج العرب في ثقافة البلدان المفتوحة، وشرب كثيرون منهم الخمر، على نحو ما يمكن أن نلاحظ في مدونة "النوادر العربية"، التي تحمل أشواق وأحلام الجماعة الشعبية العربية، التي سُمِح لها فيما بعد بالتدوين.

من هذه المدونة نسوق مثلًا واحدًا هنا يختصر عشرات الأسماء الأخرى التي لمعت في النوادر والحكايات المرحة في التراث العربي، قبل أن تنتخبه الذائقة العربية معبرًا عن أحلامها وطموحاتها وأقصد شخصية أبوالغصن دُجين بن ثابت الفزاري، المعروف بـ "جحا"، الذي ولد في القرن الأول للهجرَّة، ومات في الكوفة، سنة 160 هجرية، وجرت النوادر التي تدور حول حُمقه وبلاهته وفلسفته في الحياة في عدة مدن عربية - منذ نهاية القرن الثاني الهجري - إلى أن انتشرت وتضاعفت في بلدان أخرى، بفعل التراكم والإضافات، وأصبح هناك نموذج تركي منه هو "نصر الدين خوجه"، الذي ظهر بعد جحا العربي، بعدة قرون، وامتزجت نوادرهما وتضاعفت.

نحن ندين بالفضل للعالم الجليل الراحل الدكتور محمد رجب النجار، في إعادة قراءة مضامين النوادر الجحوية، وتصنيفها بحسب الموضوع، وإعادة الاعتبار إلى النموذج الجحوي العربي، الذي استنطقه الناس بما يوافق واقعهم ومزاجهم، قبل أن ينتشر في العالم فيما بعد، والدكتور النجَّار كان أول من اكتشف في كتابه المؤسس "جحا العربي"[25]، التقارب بين شخصيتي "جحا" والشاعر الإباحي الماجن "أبو نواس"، والتي أضحت في المجتمع الشعبي علمًا على مئات من الحكايات والنوادر المكشوفة، والتي يغلب عليها طابع الاندفاع نحو المجون والخلاعة والسُّكْر والجنس والعبث، كنزعة من نزعات التمرد

25- "جحا العربي وفلسفته في الحياة والتعبير" :"عبَّرت النادرة الجحوية عن رأي الجماعة التي أنشأتها أو رددتها في الحياة والأحياء، كما عملت على ترسيب حكمتها العملية من ناحية والترويح عنها من وطأة الأحداث والوقائع العامة (الاجتماعية والسياسية)، من ناحية أخرى، كما رأينا عند حديثنا عن فلسفة النموذج الجحوي. لكن مما يجدر الإشارة إليه - من حيث الموضوع كذلك - أن عددًا كبيرًا من النوادر التي نُسِبت إلى جحا جاء ممعنًا في الفحش والمجون، وتردد باللفظ الصريح المكشوف، الذي يخدش الحياء العام ـ ولا يمكن ترديده إلا في مجالس معينة. ولعل أغلبنا استمع إلى هذا النوع من الحكايات والنكت الفاحشة".

على الواقع والهرب منه بالاستعلاء عليه والسخرية منه، مشيرًا إلى أن الإفراط في المجون من ناحية والفكاهة والنكتة والتندر والسُّخْر هي جزء من أشكال ثقافة المقاومة، ويضيف: "ولهذا لم تشأ الأمة العربية أن تجعل هذه الشخصية ـ يقصد جحا ـ التي أبدعتها بعبقريتها سلبية أو منعزلة، وإنما جعلتها شخصية رجل عادي من الناس، له مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم، وآمالهم وآلامهم، عليه أن يسعى ـ في سبيل العيش كما يسعى غيره ويختلف إلى الأسواق ـ ويرحل إلى الأمصار، ويلتقي الحكام ويتحدث إلى العامة".

يمكننا أن نتجادل طويلًا في انتشار ثقافة الخمور عربيًّا، لكننا لا يمكن أن نكذِّب النوادر - ومنها النوادر الفاحشة التي لم تدون - التي وردت عن شخصية "جحا"، المعبرة عن هموم ومشكلات الناس واحتياجاتهم، كونه أصبح صوت من لا صوت لهم، مُعتمدًا على صراحته المليئة بالحمق، في أحيان كثيرة، وهي الصراحة التي سمحت لنا أن نتأمل المساحة الكبيرة التي احتلتها الخمور في الوجدان العربي، الذي كتب وعدَّل وأضاف إلى نوادر جحا لتكون قريبة من رغباته وأمنياته وأشواقه القوميَّة.

تأمَّل هذه النادرة، لتعرف بساطة الإقبال على الخمور في الثقافة العربية، خلال القرون الهجرية الأولى، على سبيل المثال لدرجة أن جحا لا يخجل من أن يتندر على نفسه، وهو لا يتذكر لصديقه "الراحل" أثناء جنازته سوى الخلاعة والسُّكْر والانحراف، تقول النادرة: "حدث أن مات له صديقٌ، فظل جحا يبكي خلف جنازته، ويقول: من لي بصديق يحلف إذا كذبت، ومن لي بصديق يحثني على شرب الخـمر إذا تبت، ومن لي بصديق يعطي عني في الفسوق إذا أفلست؟.. لا ضيعني الله بعدك، ولا

حرمني أجرك".

نحن نصادف السكارى والخمور في النوادر الجحوية من علية القوم، الذين يملكون المال، كون الزمن الجحوي دائمًا هو زمن ظلم وفقر وطغاة ومتجبِّرين، وجحا هو المواطن العربي الفقير دائمًا، الذي يواجه الظلم بالحمق أو بالتحامق أوبادعاء البله والغباء، وها هو أحد القضاة يَسْكر في إحدى الحدائق، فيراه جحا ويقرر أن يعاقبه بسرقة جُبته، وحين سأله الحاجب "ومن أين لك بهذه الجبة؟"، وقف جحا أمام القاضي، وقال إنه وجد الجبة مع رجل سكران في الليلة الماضية، فأوقفه القاضي عن الكلام، وقال له: "لا نريد أن نعرف مَن يكون هذا السكير".

مثلما يسكر القاضي - والقضاة من أكثر الفئات التي يلفظها جحا - يسكر السلطان أيضًا، ففي نادرة أخرى طلب السلطان من جحا أن يؤلف عبارة ينقشها على فص خاتم ثمين له، مشترطًا أن تكون العبارة سحرية، إذا قرأها السلطان وهو حزين يذهب عنه الغم والكمد، وإذا قرأها وهو مسرور أصابه الحزن وغشيته الكآبة، فكتب جحا "كلّه فان"، فكان السلطان إذا سكر وعربد حتى انتشى قرأ هذه العبارة فيستحي من نفسه، ويحد من شراهته ولهوه.

ومثلما عرف جحا الخمور والسكارى عرف "الحشيش" أيضًا، كأن الجماعة الشعبية أرادت أن يدلي جحا بدلوه في الحشيش، الذي لم يكن على زمانه التاريخي شيء منه، لأن تسمية المنتج من نبات القُنَّب بـ "الحشيش"، عرفت متأخرة عن زمن جحا بقرون، لكن الجماعة أرادت أن يعبر لسانها العربي الفصيح المسمى "جحا" عن الأمر في نادرة تعكس ما يحتاج المواطن إلى الشعور به، فكانت هذه النادرة:

"سمع جحا أن الحشيش يُذهب العقل فابتاع منه مقدارًا وذهب إلى الحمام، وتناول منه بعضه، وفي أثناء اغتساله خطر له أن الناس يقولون إن الحشيش يذهب العقل، فقال: لابد أن هذا الكلام فارغ، أو أن البائع غشني، وفي الحال خرج من الحمام مسرعًا وهو عريان فنظر إليه الناس متعجبين وسألوه لماذا تفعل بنفسك هكذا يا جحا..؟ فحدثهم بما يقال عن الحشيش، وقال لهم: لا شك أن البائع خدعني وأعطاني حشيشًا لا يُخدر".

الفصل الرابع

العرب والنبيذ معًا في مصر

"قَالَ تَزرَعُونَ سَبعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّم فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ (٤٩)"

(قرآن كريم ـ سورة يوسف)

"تأتي عمارتها وخرابها من وجوه خمسة، أن يستخرج خراجها في إبان واحد، عند فراغ أهلها من زروعهم، ويرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عَصْر كرومِهم، وتحفر في كل سنة خلجُها وتُسد ترعُها وجسورُها، ولا يقبل محل أهلها يريد البغي، (حاكم ظالم) فإذا فُعل هذا فيها عمرت، وإن عمل فيها بخلافه خُربت"

"المقوقس"

"أهلك الرجالَ الأحمران: اللحم والخمر"

"مثل عربي قديم"

قلنا دائمًا إن الحضارة الإنسانية هي حضارة واحدة أسهمت في تكوين عناصرها الأمم والأجناس المتنوعة، وبالتالي فإن أي انجاز عرفته الحضارة المصرية القديمة مثلًا يمكن أن يكون قد انتقل إلى مكان ما في أوروبا أو آسيا، وتطور بمعرفة أناس آخرين، يضيفون إليه كل يوم جديدًا، على نحو من التفاعل المتصل المتقطع، الذي يسميه حسين مروة في الجزء الأول من كتابه العمدة "النزعات المادية للفلسفة العربية الإسلامية: "وحدة ديالكتيكية بين منجزات الشعوب"، ونحن نؤمن أن هذا هو بالضبط ما حدث مع ثقافة احتساء الخمور، عبر التاريخ، وبالطبع لا يمكننا أن نستثني الأمة العربية من هذا الأمر، خصوصًا أننا باتت لدينا الأدلة على أن العرب عرفوا الخمور وشربوا منها بِنَهَم ـ سواء قبل الإسلام أو في عهد الرسول الكريم، أو خلال عصور الخلفاء الراشدين، ومن جاء بعدهم من الخلافة الأموية ثم العباسية ـ مثلما تنطق بذلك آثارهم الشعرية وكتبهم الأدبية وصفحاتهم التاريخية.

بغض النظر عن ورود مديح الخمور عند كثير من أعلام الثقافة العربية، وأشهرهم "الجاحظ" (عثمان بن بحر ـ الوفاة 253 هجرية)، في: "رسالة الجاحظ إلى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وصفة أصحابه"، نعتقد أن لحظة اقتراب الإسلام من ثقافتي الشام ومصر، أي لحظة دخول جيوش المسلمين هذه البلاد، تعتبر من اللحظات الكاشفة التي عكست انتشار ثقافة الخمور على نطاق واسع في المجتمع العربي الإسلامي، لكنها لحظة لم تحظ بالاهتمام الذي يليق بها في تاريخ الإسلام، فرأينا أن نهتم بها ونحن نؤرخ لتاريخ بلادنا، برصد هذا اللقاء الأول من نوعه بين المسلمين وأرض الخمور، لنتعرف على الإجراءات الأولى التي اتخذوها بشأن الخمور وتداولها وبيعها وشرائها وكذا فرض الضريبة عليها.

لكن قبل ذلك نريد أن نتجول قليلًا في الثقافة العربية لحظة ظهور الإسلام، فبعض أخبار الفترة الأخيرة من الجاهلية: "تؤكد أن المناطق الزراعية ولاسيما يثرب والطائف، كانت تعالج بعض الثمار والنباتات بنوع من التصنيع، كاستخراج الخمر من التمور، وتجفيف الفواكه وصنع أوعية حفظها ونقلها."[26]. والكاتب يشير إلى أن إنتاجية الزراعة كانت تجتذب كبار تجار قريش في مكة، لتوظيف بعض أموالهم في ملكية الأرض الزراعية بالطائف" ثم ينقل عن البلاذري: "أن أبا طالب عم النبي كان يأتيه الزبيب من كرم له بالطائف".

سبق أن أشرنا في فصل سابق إلى أن واقعة شراء قصي بن كلاب ولاية البيت "الكعبة" من أبي غبشان الخزاعي بزِقٍّ من الخمر، خصوصًا أن هذه الصفقة صارت أساسًا للمثل العربي المعروف "أخسر صفقة من أبي غبشان"، إلا أن دكتور سليمان حريتاني وفر علينا جهدًا مضنيًا في بحث واقع الخمور خلال فترة ظهور الإسلام، وقدَّم لنا في كتابه الغني "الخمرة وظاهرة انتشار الحانات ومجالس الشراب في المجتمع العربي الإسلامي"[27]، الإجابة الوافية عن السؤال: كيف انتقلت ثقافة الخمور من المرحلة الجاهلية إلى مرحلة الإسلام انتقالًا سلسًا وسهلًا، حيث تطورت تجارتها بعد دخول جيوش المسلمين البلدان المفتوحة ومنها بالطبع مصر والشام.

كما يقدم لنا ثبتًا تاريخيًا للخلفاء الذين تولوا الخلافة في الدولة الأموية وكانوا من شاربي الخمر: يزيد بن معاوية بن أبي سفيان،

26- "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، حسين مروة الجزء الأول ـ ص 235.

27- "الخمرة وظاهرة انتشار الحانات ومجالس الشراب في المجتمع العربي الإسلامي"، تأليف: الدكتور سليمان حريتاني، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا ـ دمشق ـ برامكة، الطبعة الأولى 1996.

مؤسس الدولة الأموية، وعبدالملك بن مروان، والوليد بن عبدالملك، وسليمان بن عبدالملك بن مروان، ويزيد بن الوليد، لافتًا إلى قائمة أخرى من النساء اللائي شربن الخمور من البيت الأموي، ومنهن زوجة الخليفة هشام بن عبدالملك، المعروفة بأم حكيم، وكان لها كأس كبير فيه من الذهب ثمانون مثقالًا".

ويدلل دكتور سليمان حريتاني على صحة المثل العربي القديم "أهلك الرجال الأحمران اللحم والخمر"، بالإشارة إلى واقعة مذهلة، يقول ص 96: "الواثق آخر خلفاء الدولة العباسية أنشأ خمارتين، إحداهما في دار الحرم، والأخرى على الشط ببغداد"، مضيفًا: "انتقلت مجالس الشراب أو ما يسمى بالحانات "الخمارات"، من العصر الجاهلي إلى العهد الأموي فالعصور العباسية سليمة معافاة مع توسع في الخدمة وتعديل بالمفهوم، وسيرورة في الانتشار، وشقت طريقها في السر والعلن، وعززت وجودها بفضل جموع عشاقها".

ويلفتنا حريتاني إلى أن القائمين على إدارة الخمارات في العصور الإسلامية الأولى استطاعوا أن يرتبوا أمورهم برشوة أصحاب النفوذ من المسؤولين، وبالتفاهم مع رجال الشرطة، بدفع المعلوم الذي يحميهم ويحمي نزلاءَهم وروادهم، ويكف الأذى عنهم، لافتًا إلى الموقف الفقهي لأبي حنيفة النعمان، ص 67، وقال "لقد أباح الإمام أبوحنيفة النعمان شرب النبيذ دون التقيد حتى بالمقادير وقال بعدم معاقبة السُّكْران من النبيذ واعتمادًا على ذلك سُمح للمسلمين أن يتاجروا به، وعده من الأموال المضمونة، كما اعتبره طاهرًا يجوز الوضوء به عند عدم الماء".

خيرات مصر

على عكس الاعتقاد السائد، لم يؤد دخول جيوش المسلمين أرض مصر عام (19هـ ـ 640م)، إلى انقطاع في انتاج الخمر والنبيذ بأنواعه، بل ربما كان العكس هو ما حدث، فقد ساهم دخول العرب في استمرار هذا الإنتاج وربما ساعد على ازدهاره وبقائه لزمن أطول، على نحو ما سوف نطالع في هذا الفصل. حيث كان العرب يعرفون قدرًا لا بأس به عن خيرات مصر قبل أن يدخلوها بجيوشهم، وكان النص القرآني قد وصف بدقة مواسم الزروع في البلاد التي أطلق عليها "خزائن الأرض"، لافتًا إلى أهمية ما يعصر قدماء المصريين من خمور وتأثير تجارتها العالمية على رفاهية مصر، كجزء لا يتجزأ من اقتصادها، الذي شهد عهود ازدهار كثيرة قبل دخول المسلمين.

قال تعالى في سورة يوسف: (قَالَ تَزرَعُونَ سَبعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُم فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ (٤٩)) سورة يوسف. بما يعني أن القرآن تعامل مع فكرة "عصر العنب ليصير خمرًا" تعاملًا موضوعيًّا عاديًّا، لا يختلف كثيرًا عن "عصر السمسم ليصير دهنًا أوعصر الزيتون لصير دهنًا"، على حد قول جمهور الفقهاء.

ها هي جيوش المسلمين التي يفترض أنها تؤمن بأن الخمر حرام تدخل البلد الذي يُنتج الخمر ويعتمد اقتصادها عليه، حيث كانت مصر حاضرة الإمبراطورية البيزانطية ومحور تصدير القمح والنبيذ إلى أنحاء متفرقة من هذه الإمبراطورية، قبل أن تتحول إلى البلد الذي يدفع

لبيت مال المسلمين ضريبة على الخمور، تعادل ما تدفعه من ضريبة على العسل.

علينا أن نعترف بداية أن العرب حين دخلوا مصر في مشرق دولتهم كانوا فئة قليلة وفي أمس الحاجة إلى خيراتها، وجدوا جيوش الإمبراطورية البيزانطية وحدودها مريضةً، بمرض زعيمها هرقل (توفي 641م) الذي كانت قد أصابته الشيخوخة، وبات الموتُ منه وشيكًا، وبعد سنوات من طرده الفرس من الشام ومصر، كانت قوات حامياته الرومية قد ضعفت، وصار الحكام الذين يمثلونه في مصر في حال من الفساد والانقسام فيما بينهم، جعلهم يمارسون صنوف الاضطهاد الديني ضد الأقباط، أهل البلد، بسبب خلافات بين المذاهب المسيحية حول طبيعة المسيح، ما جعل الأقباط يتذوقون مرارات التعذيب من قبل جيوش الرومان "أتباع المذهب الملكاني" بزعامة "قيرس".

بحسب الباحث ألفريد ج. بتلر في كتابه المهم "فتح العرب لمصر"[28]، فإن الوضع البائس لجنود هرقل وقسوتهم جعلت الأقباط يتوسمون في العرب أن يكونوا أقل وطأة عليهم من أشقائهم في الدين، لكنهم لم يتورطوا أبدًا في اتفاق مع العرب، قبل انتهاء المعارك العسكرية بين العرب وجيوش الرومان، وأنهم على العكس قاوموا قدر جهدهم الفاتح العربي، مستشهدًا بـ "ثورة الإسكندرية بقيادة منويل".

لا نجد أنفسنا في حاجة إلى التذكير بأن خليفة المسلمين لحظة دخول

28 ـ "فتح العرب لمصر" تأليف ألفريد ج. بتلر، تعريب محمد فريد أبوحديد بك، وعلى الرغم من الخلاف حول ترجمة conquest التي تعني الغزو، حيث عنون الباحث البريطاني كتابه:The arab conquest of eygpt، إلا أنه يُعتبر الكتاب الأكثر دقة في موضوعه، خصوصًا في ظل تصويبات المعرب القدير وإشارات وتعليقات أستاذة التاريخ د. نهلة أنيس.

العرب مصر كان هو عمر بن الخطاب، "أشرب الناس في الجاهلية"، والذي استمر يشرب النبيذ فترة حتى بعد نزول الإسلام[29]، وعلى الرغم من أننا لا نعرف بالضبط هل استمر عمر في شرب النبيذ بعد ذلك أم لا، وهل أقام فعلًا حد الجلد على ابنه (الذي سَكِر في مصر)، وهل مات الولدُ جلدًا أم مات بعد ذلك بزمن طويل، أقول إن كل تلك الأسئلة من وجهة نظري لا تعنيني من قريب أو من بعيد، لأن مدوّنها العربي القديم، أراد منها - على الأرجح - تضليل الأجيال المقبلة، لصرف النظر عن بعض الأسئلة التاريخية الحرجة للعرب والمسلمين، والتي تكشف جانبًا من الحقيقة المادية الملموسة، التي كانت دليلًا على الفارق الشاسع بين الخطاب الفقهي الإسلامي والممارسة العملية التطبيقية لهذا الخطاب على أرض الواقع.

في المقابل، وبقراءة سريعة لبعض مدونات هذه اللحظة التاريخية، نجد أننا أمام أسئلة تتعلق بموقف العرب الحقيقي من الخمور: هل كان العرب يعتبرون الخمر حرامًا حينما دخلوا مصر؟.. وهل كانوا يعرفون أن جزءًا أصيلًا من خيرات مصر والشام، التي سوف تصب

29- روي عن عمر بن الخطاب أنه كان يشرب الخمر في الجاهلية، فمنها ما روي أنه كان يشرب النبيذ الشديد، ويقول إنا لننحر الجزور وإن العنق منها لآل عمر ولا يقطعه إلا النبيذ الشديد". ومنها "أحب الشراب إلى عمر "النبيذ"، وعن أنس قال: "كان أحب الطعام إلى عمر الثفل وأحب الشراب إليه النبيذ" ابن سعد. ومنها أن "النبيذ عند سيدنا عمر حلال ... لهضم لحم الجمال"!! وعن عمرو بن ميمون قال: قال عمر: "إنا لنشرب من النبيذ نبيذًا يقطع لحوم الإبل في بطوننا من أن تؤذينا". ومنها ما يروى: "عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: "لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)، قَالَ : فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ يُنَادِي: أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا". رواه أبو داود".

خِراجًا أو جِزيةً في بيت مال المسلمين هي من متحصلات وعائدات تجارة الأنبذة والخمور؟.. وهل قَبِلَ الخليفة عمر بن الخطاب وعماله في الولايات أن تستمر صناعة الخمور والتجارة فيها، وأن يُحصِّلوا عنها الضرائب المقررة، وهل كانت هي نفسها الضريبة التي كان يُحصِّلها رجال الإمبراطورية البيزنطية من قبلهم عن الخمور في مصر؟..إلخ.. إلخ.

المدهش أنه يمكننا اليوم معرفة كيف أدت خيرات مصر وبعض الأقاليم التي دخلها العرب إلى أن يسود بعض الجشع وأن تُدَس الدسائس بين قادة ورموز الخلافة الإسلامية، والأكثر إدهاشًا أننا لا نعرف ذلك من مؤرخ أجنبي حاقد على العرب مثلًا، بل من مؤرخ عربي يمتد نسبه العائلي إلى قريش، ولا يفصله عن الحدث أكثر من قرنين من الزمان، حيث يمكننا أن نثق في بعض ما جاء فيه، خصوصًا أنه يُورد "نصوص" الرسائل المتبادلة بين الخليفة عمر بن الخطاب والوالي عمرو بن العاص، ويشير إلى قصص الوشايات والخلافات التي وقعت بين القادة العسكريين العرب، وحالة التنافس البشع التي وصلت إلى حد القتل بين المرشحين لتولي ولاية مصر. فأي خير يُمكن أن نتخيله في تلك الولاية التي دفعت بعض صحابة رسول الله أن يتقاتلوا ويقتلوا بسببها؟..

كَرْم امرأة المقوقس

من بين أكثر المراجع الكاشفة للحظة دخول العرب لمصر، والتي لم تحظَ بالاهتمام الذي تستحق كتاب "فتوح مصر والمغرب"[30] لابن عبد الحكم (المتوفى 257 هـ)، حيث يمكننا أن نلمح تاريخًا أكثر كشفًا لنوايا العرب وأحلامهم من الفتوحات عمومًا، ومن فتح مصر تحديدًا، حيث كان قادة الجيوش الإسلامية قد فتحوا أعينهم على حجم الخيرات في البلد الذي يطل على بحرين ويمر فيه أحد "أنهار الجنة"، بل إنهم اعتبروا أنفسهم وهم يفتحون مصر إنما هم في الحقيقة "كمن يحلب بقرة"، كما يكشف الكتاب عن حجم المنافسة الشديدة بين الولاة المسلمين على ضرورة أن تجتمع في يد الوالي المسؤولية عن الحرب والمسؤولية عن "الخراج" معًا، ولعلنا سمعنا ما يتردد في كتب الإخباريين العرب عن الخلاف بين عمرو بن العاص وعبدالله بن سعد بن أبي السرح، حيث رفض عمرو أن يبقى مسؤولًا عن الحرب وابن أبي السرح يبقى مسؤولًا عن الخراج، وقال عمرو ساخطًا: "أنا إذن كماسك البقرة وغيري يحلبها".

وفضلًا عن الآية الكريمة في سورة يوسف:"قَالَ ٱجعَلنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلأَرضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55)" ، ما يعني أن مصر كانت في ذلك الزمان تحتوي من وجهة نظر العرب على "خزائن الأرض"، ينقل ابن عبد الحكم حكاية يمكن تصديقها وقد كانت شائعة بين العرب الفاتحين، تؤكد معرفتهم بأن مصر تعوم على بحيرة من الخمر، والحكاية تقول إن امرأة "المقوقس" حاكم مصر وقتها، كانت تحصِّل الضريبة خمرًا من

30 ـ "فتوح مصر والمغرب" لابن عبد الحكم. طبعة سلسلة الذخائر ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة.

سكان الإسكندرية، يقول ابن عبد الحكم: "كانت بحيرة الاسكندرية، كما حدثنا عبدالله بن صالح عن الليث بن سعد كرمًا كلها لامرأة المقوقس، فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر، بفريضة عليهم، فكثر الخمر عليها حتى ضاقت به ذرعًا، فقالت: لا حاجة لي في الخمر، اعطوني دنانير، فقالوا ليس عندنا فأرسلت عليهم الماء فغرقتها".

طبعًا نحن نعرف أن كل المؤرخين العرب القدامى خلطوا دومًا بين شخصين شاركا في الأحداث وأطلقوا عليهما اسمًا واحدًا هو "المقوقس" رغم ما بينهما من خلاف، الأول هو "قيرس" ممثل الإمبراطورية البيزانطية في مصر، والذي كان يحظى بكراهية معتبرة من القبط، والثاني هو البطرك "بنيامين"، رأس الكنيسة القبطية، الذي اختفى 13 عامًا، ولم يعد إلا بعد الفتح العربي، وأغلب الظن أن ابن عبد الحكم يقصد هنا امرأة "قيرس".

مصداقًا لفكرة تحري خليفة المسلمين حجم الخيرات المتوقعة من مصر وكيفية توجيه قدراتها لتحقيق أقصى استفادة ممكنة من الإقليم المفتوح، وعلى الرغم من تأكده من أن الخراج لا يُرفع إلا بعد "عَصر الكروم" إلا أن ذلك لم يغير من الحقيقة شيئًا، فقد ظلت الدولة الإسلامية الوليدة تحصل مستحقاتها، حيث يُورد ابن عبدالحكم طلبًا وجهه ابن الخطاب لابن العاص، بأن يسأل (المقوقس ـ حاكم مصر السابق)، عن مصر من أين تأتي عمارتُها وخرابُها: "فسأله عمرو فقال له المقوقس: "تأتي عمارتها وخرابها من وجوه خمسة، أن يستخرج خراجها في إبان واحد، عند فراغ أهلها من زروعهم، ويرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عَصْر كرومِهم، وتحفر في كل سنة خلجُها وتُسد ترعُها وجسورُها، ولا يقبل محل أهلها يريد البغي، (حاكم ظالم) فإذا فُعل هذا

فيها عمرت، وإن عمل فيها بخلافه خُربت".

بالإضافة إلى الصورة المعروفة من آثار مصر الشهيرة لتمثال "صانعة الجعَّة" الموجود في المتحف المصري، فإن من حسن حظنا أن الكاتبة الراحلة سناء المصري رسمت في كتابها "هوامش الفتح العربي لمصر"[31]، لوحةً واسعةً لمعاصر النبيذ في مصر القديمة، في تلك اللحظة التي دخلت فيها الجيوش العربية ووجدتها تعمل فعليًّا على الأرض، لافتة إلى التطور المذهل لوضع المرأة المصرية وقتها قياسًا إلى وضع النساء في ثقافة الصحراء، حيث كانت الفتيات الشابات والنساء يعملن في مصر معًا إلى جوار الرجال، لافتة إلى ازدهار الحضارة القبطية في القرن الثالث الميلادي، تقول المؤلفة: "كانت بعض الفتيات يعملن في معاصر النبيذ وفي مصانع القرية الصغيرة وصوامع الغلال، كما كُن يشاركن في مواسم جمع الكروم، التي تغطي القرية ببهجتها أثناء عمليات جمعه وتحميله على الجمال، ونقله إلى معاصر النبيذ".

نحنُ نؤمن بصحة ما جاء في كتب المؤرخين العرب عن حالة التنافس البشع التي وصلت إلى حد القتل، بين الصحابة، المرشحين لتولي ولاية مصر، فمثل هذه الحكايات إذا جاءت في مخطوط قبطي مثلًا فلن تكون لها مصداقية كافية، إلا أنها ولحسن الحظ وردت عند المؤرخين العرب فيما يشبه الإجماع، وها هو "المقريزي" ينقل في "المواعظ والاعتبار" واحدةً من الروايات المستقرة في كتب المؤرخين العرب، والتي تقول إنه قد فسدت مصر على يد محمد بن أبي بكر، وبلغ الخليفة ذلك فاستدعى الأشتر وقال له: "ليس لها غيرك فاخرج إليها"، لكن عمرو بن

31 ـ "هوامش الفتح العربي لمصر"، سناء المصري، دار الكرمة للنشر.

العاص ومعاوية بن أبي سفيان دبرا للأشتر قتلًا يليق به، حينما اتفقا مع أحد الرجال لدس السم في العسل، وشرب الأشتر شربة ومات على أبواب مصر قبل أن يدخلها وكان معاوية وعمرو كثيري التندر على تلك الحادثة بقولهما: "إن لله جنودًا من عسل".[32]

هنا نستعين بساويرس ابن المقفع[33] صاحب "تاريخ مصر من خلال مخطوطة البطاركة"، لنتعرف منه - على الرغم من لغته المتحاملة - على جانب من ظلم الولاة الذين أرسلتهم الدولة الإسلامية لتولي عرش مصر، مشيرًا: "بالإضافة إلى أنهم استمروا على نفس جباية الضرائب الباهظة على القبط"، وتنقل الباحثة الراحلة سناء المصري، في كتابها المهم "هوامش الفتح العربي لمصر"، ما كتبه ساويرس ابن المقفع عن ثورات الغضب المصري ضد ولاة المسلمين، الذين لم يتحلوا بالذكاء والكياسة التي تحلى بها عمرو بن العاص، الذي كان أكثر تسامحًا مع الأقباط، إلا أن القرن الأول الهجري شهد عددًا من الولاة المسلمين الظالمين، كان بينهم "قرة بن شريك"، الذي أراح الموت الأقباط من شروره، بحسب ابن المقفع الذي اعتبر قرة رجلًا ظالمًا، وأن الوالي الذي جاء بعد وفاة بن شريك كان يدعى أسامة، وقد اتخذ إجراءات صارمة ضد الأقباط، والذي كان ينصح جنوده بالسطو والتخريب، ويصف ساويرس ابن المقفع بعض هؤلاء الجنود وأفعالهم في هذه السطور، التي تشي دون أن تقصد بحجم انتشار بيع النبيذ تحت سمع العرب وأبصارهم وبأيديهم أحيانًا، تقريبًا (سنة 96هـ): "كانوا يخرِّبون

32 ـ "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، تقي الدين المقريزي، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

33 ـ "تاريخ مصر من خلال مخطوطة البطاركة" ساويرس ابن المقفع إعداد وتحقيق عبدالعزيز جمال الدين الهيئة العامة لقصور الثقافة 2012.

المواضع ويقلعون العمد والأخشاب، ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير بدينار، والنبيذ أربعين مطرًا بدينار، والزيت مائة قسط بدينار.."

"عَصْر كرومهم"

لقد كان بديهيًّا أن تتحطم صخرة تحريم الخمور على أرض مصر، وأن ينجر العربُ - وعلى رأسهم الخليفة عمر بن الخطاب - إلى "فقه الضرورة" من أجل اتخاذ موقف عقلاني وموضوعي ورشيد من الخمور، وهو موقف لا علاقة له بما يُعرف عن عمر بن الخطاب من حب معروف عنه للنبيذ، كما أوضحنا، حيث كان النبيذ أمرًا بديهيًّا في الأسواق المصرية وقتها، بداهة الأخشاب والزيت والسلع الغذائية، خلال السبعين عامًا الأولى للعرب في مصر، وهذا يعني أن العرب اتخذوا موقفًا نفعيًّا محضًا لا علاقة له بتحريم أو بإباحة الخمور، بل له علاقة بالنفع التجاري المباشر، ومنذ اللحظة الأولى اكتشفوا - وهم التجار- أنهم سوف يخسرون كثيرًا إذا صادروا إنتاج الخمور، وأن ذلك كان سيغلق أمامهم بابًا للرزق، فقرروا أن يتركوا الحديث عن تحريمها للفقهاء، أما خليفة المسلمين، الفاروق عمر فقد عرف من "المقوقس" ضرورة أن يكون محصول الكروم وفيرًا، والأرجح أنه أمر أن يستمر في تحصيل الضريبة عن الخمر، مثل غيرها من السلع، هكذا بمنتهى البساطة، خصوصًا إذا عرفنا أن العرب على حد تعبير الخليفة في أحد خطاباته مستحثًا ابن العاص على التعجيل بإرسال الجزية: "قومٌ محصورون".

لكن.. هل انتهى الخلاف، بين الخليفة عمر بن الخطاب والوالي عمرو بن العاص بسبب "خراج مصر" عند هذا الحد..؟ أم امتد إلى مواجهات

لفظية بينهما، اتُّهم فيها "ابن العاص" بالثراء المالي "المفاجئ" بسبب خيرات أرض مصر.. ودافع "ابن العاص" طبعًا عن نفسه فقد تسبَّب "الخراج" القادم من مصر، في خلاف بين الخليفة عمر بن الخطاب ووالِيه على مصر حيث زادت الضغوط الاقتصادية على الخليفة، كلما استقر الأمر للعرب في مصر، بسبب الاضطرابات السياسية في منشأ الدولة الإسلامية، حيث كان الخليفة يشكك دائمًا - كما ورد في بعض خطاباته - في سلوك بن العاص المالي، وقد قال ذلك صراحة في الخطاب: "ولم أقدمك إلى مصر أجعلُها لك طُعْمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك"، الأمر الذي رفضه ابن العاص وقد كانت له حُجة وجيهة أوردها بتلر في "فتح العرب لمصر" نقلًا عن المقريزي:

"طلب عمرو أن ينتظر به على الناس حتى تُدرك غلتهُم، وقال لعمر إنه لا يستطيع أن يزيد الخراج على الناس بغير أن يؤذيهم، وإن الرفق بهم خير من التشديد في أمرهم وإكراههم على أن يبيعوا ما هم في حاجة إليه في أمور معيشتهم، لكي يؤدوا ما يُطلب منهم".

الحق أنه يجب أن ندرك أن عمرو بن العاص كان من أكثر الولاة المسلمين رأفة بالقبط بشهادة بتلر، بسبب قراراته التي كانت دائمًا تراعي الأقباط من دون التفريط في جمع الخراج، وتحصيل الضرائب، والذي يمكن فهمه من هذا الخلاف أن ابن العاص كان يريد أن يطبق النصيحة التي تلقاها من بطريرك الأقباط بنيامين، عن مصر التي تقول: "تأتي عمارتها وخرابها من وجوه خمسة، أن يُستخرج خراجها في إبان واحد، عند فراغ أهلها من زروعهم، ويرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عَصْر كرومِهم.." إلى آخر النصيحة، وبالتالي نستطيع أن

نتفهم الأسباب التي دفعته للرفض.

الحقيقة أن كثرة الإلحاح ألهمت أمير المؤمنين فكرة تؤكد صحة استنتاجاتنا، فقد أصر الخليفة عمر بن الخطاب إصرارًا على تنفيذ الفكرة، وهي أن يتم حفر خليج من نهر النيل حتى يسيل في "البحر الأحمر"، ولذلك استقبل عمرو بن العاص في المدينة أحسن استقبال، وقال عمر:

"يا عمرو إن الله فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين، والتوسعة عليهم، حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم، ولجميع المسلمين، أن أحفر خليجًا من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله على الظهر يبعد، ولا نبلغ منه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك وتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم".[34]

شروط الصلح

في "هوامش الفتح العربي لمصر" تمضي سناء المصري شوطًا أبعد، لافتة إلى أن مصر مثلت الجنة بالنسبة للعــربي ابن الصحراء، ففيها الفواكه والأعـناب والأشــجار والطــيور والأنهار الجارية واللبن والعسل

34 ـ من السهل أن نقرأ في كتب التاريخ عن خليج أو "ترعة تراجان"، التي بدأ العمل فيها عام (641م) تقريبًا، أي فور استقرار وضع العرب في مصر، وربما قبل ذلك بقليل، والمفترض أنه تم الانتهاء منه نحو (644م)، وهو الحدث الذي ما أطلق عليه العرب "خليج أمير المؤمنين"، ووردت قصته في مصادر عربية عدة وعلى رأسها "فتوح مصر والمغرب" لابن عبدالحكم، تحت عنوان "ذكر حفر خليج أمير المؤمنين".

الرجال والنساء والذهب والفضة، حتى الخمر التي وعد الله بها المؤمنين في الجنة كانت متوفرة في مصر، وتقول: "كثير من الحكايات التاريخية تشير إلى إقبال الفاتحين المسلمين على العبّ من كل الشهوات، بما فيها الخمر، وحادثة شرب ابن الخليفة عمر بن الخطاب للخمر لم يكن استثناء وحيدًا، كما يروى عن القاضي البكري الذي حكم ضد قبط مصر في قضية أهل الحرس أنه كان لا يجلس للقضاء إلا بعد الغداء وبعد أن يشرب عدة أقداح من الخمر، ونجد في أخبار دعبل بن علي، الذي حكم أسوان بعض الوقت أنه كان يشرب النبيذ".

احتلت الخمور - إذن - تلك الأهمية الاقتصادية الكبرى في مصر، لحظة دخول العرب، ومثلما كانت شرطًا من شروط نهضتها أن يجمع خراجها بعد فراغ أهلها من زروعهم وعصر كرومهم، وصلت أهمية الدور الذي تلعبه الخمور في الثقافة المصرية وقتها إلى حد أنها دخلت شرطًا من شروط العقد الموقع بين العرب والقبط بوصفهم من "أهل الذمة"، حيث تقيد دفع الجزية بنوعين من الشروط: ما يجب لزومه واتباعه دائمًا، وما يكون لزومه واتباعه بحسب شرط العقد، وجاءت الخمر ضمن الفئة الثانية.

يذكر بتلر الشروط التي توافق عليها العرب والقبط، مشيرًا إلى أن حماية المسلمين لأهل الذمة في ذلك الوقت الأول من حكم الإسلام لم تكن تقيدها القيود التي دخلت فيما بعد، وقد قضى شرط الصلح مع المسيحيين بأن يدفعوا الجزية، على أن يأمنوا في بلادهم، ويُدفع عنهم من أراد غزوهم من عدوِّهم، فكان هذا عهد أهل الذمة الذي تم الاستقرار عليه، يشير بتلر إلى أن تغيرًا طرأ على هذا العهد منذ القرن العاشر الميلادي، حيث تقيد دفع الجزية بنوعين من الشروط: ما يجب لزومه

واتباعه دائمًا، وما يكون لزومه واتباعه بحسب شرط العقد، والشروط الذي لابد من لزومها هي: "ألا يُعتدى على القرآن ولا تُحرق مصاحفه، ألا يُقال على النبي إنه كذاب، ألا يُسب دين الإسلام، ألا يتزوج مسيحي من مسلمة، ألا يُغرر بمسلم ويُغرى ليرتد عن الإسلام، ألا يوالى أعداء الإسلام ولا ينصروا"، أما الأمور التي يتبعُ فيها شرط العقد فكانت: "أن يلبس أهل الذمة لباسًا يميزهم ويعقدوا الزنانير على أوساطهم، ألا يعلوا في بنيانهم على المسلمين، ألا يؤذوا المسلمين بقرع نواقيسهم ولا بترتيلهم في صلاتهم، وألا يبدوا صلبانهم ولا يشربوا الخمر جهارًا ولا يظهروا خنازيرهم".

الفصل الخامس

خمر المماليك: بيوت المِزْر

(..وأجود الأشربة عندهم الشمسيّ، لأن العسل الذي فيه يحفظ قوته ولا يدعه يتغير بسرعة، والزمان الذي يعمل فيه خالص الحرّ فهو ينضجه، والزبيب الذي يعمل منه مجلوبٌ من بلاد أجود هواء، و"أما الخمر" فقل من يعتصرها إلا ويلقي معها عسلًا وهي معتصرة من كرومهم، فتكون مشاكلة لهم، ولهذا صاروا يختارون الشمسي عليها، وما عدا الشمسيّ والخمر من الشراب بأرض مصر فرديء لا خير فيه لسرعة استحالته من فساد مادته النبيذ التمريّ والمطبوخ والمِزْر المعمول من الحنطة).

تقي الدين المقريزي ـ "المواعظ والاعتبار بِذكر الخطط والآثار"

هكذا إذن سَكِر العرب وسمحوا بتجارة الخمور وشُربها، والأهم أنهم حصَّلوا عنها الضرائب بعد وصول جيوش الإسلام المجمعة من القبائل العربية - ذات الأغلبية اليمينة من أبناء الثقافة العريقة في شرب الخمر- إلى مصر، وبينما كانت تلك الممارسات تتم على الأرض في البلاد التي تحكمها دولة الخلافة الإسلامية، كانت الخمور تترك آثارها على الثقافة الرسمية المكتوبة، ونحن نعلم أن العَّلامة العربي الجاحظ ـ عثمان ابن بحر المتوفى عام 255 هجرية، كتب كتابًا في وصف الخمور وأنواعها وأوصاف أصحابها[35]، وأن الحديث عن الخمور شغل مؤرخًا بحجم ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ابن خَلدون 732 ـ 808 هجرية)، كما نلاحظ في مقدمته، بعدما شغلت الأنبذة أفكار أستاذه الفقيه ابن رقيق القيرواني المتوفى 420 هجرية لدرجة أنه ألف كتابًا وصلنا - والحمد لله - في مديح الخمور وأنواعها وصفات شاربيها.[36]

في مصـــر وإلى حد كبير في الشام، زاد اهتمام الناس بالخمـور، بعد دخول الإســلام، وإن كنا رصدنا في الفصل السابق انتـشار الخمور إنتاجًا وتناولًا خلال القـرن الأول الهــجري، فإننا نقــرأ في هذه السطور ما حــدث في القرون الهجرية اللاحقة على القــرن الأول، لا من خـلال "حـكايات جحا العــربي"، ولا في "ألف ليلة وليــلة"، على أهـميتهما في تفسير

35ـ رسالة الجاحظ (159 هـ255- هـ) إلى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وصفة أصحابه..

36ـ "قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور"، لابن الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (متوفى 420هـ ـ 1029م).

كثير من ظواهر التاريخ[37]، بل من خلال حكايات متواترة في مدونات التاريخ ومصادره الكلاسيكية، رواها الكثيرون ووصلتنا من مؤرخين بقيمة "ابن إياس" و"المقريزي"، على سبيل المثال، وكلها تشير إلى أن انتشار ثقافة الخمور أصبح أمرًا ملحوظًا، وأن تأثيرها على انهيار الدولة الأموية -مثلًا- ربما كان ملحوظًا أيضًا.

يحكي ابن إياس كيف هرب الأمير الأموي عبيد الله بن مروان، منتصف القرن الثاني الهجري وتحديدًا عام 132 هجرية، حينما علم أن أباه مروان الحمار، قد انكسر أمام جيوش الدولة العباسية الوليدة، ففر الأمير من بطش الخليفة العباسي الأول متجهًا جنوبًا حتى وصل إلى ملك النوبة، التي لم تكن قد دخلت الإسلام بعد، فسأله ملك النوبة المتواضع والحكيم كما تصفه الحكاية: "كيف سُلبتم من ملككم وأُخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم، فقال الأمير: "إن الذي سلب منا ملكنا أقرب إلى نبينا منا". وظل ملك النوبة في حيرة من أمره، هل يجير الأمير الذي استجار به، أم يطلب منه الرحيل، ودار جدل بين ملك النوبة والأمير، يقول ابن إياس:

"ثم سكت ملك النوبة وقال للترجمان، قل له فكيف أنتم تلوذون إلى نبيكم بقرابة، وأنتم تشربون ما حرَّم عليكم من الخمر، وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم، وتركبون في السروج الذهب والفضة وهي محرّمة عليكم، ولم يفعل نبيكم شيئًا من هذا؟"..وتنتهي حكاية ابن إياس بخروج الأمير من أرض ملك النوبة، وقتله فيما بعد على يد أعدائه.

37ـ راجع كتاب "ما التاريخ؟" للدكتور أحمد زكريا الشلق، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2018 خصوصًا الإشارة إلى أن دراسة التراث الشعبي تكمل الجوانب الناقصة لتصوير الظاهرة التاريخية.

ومن القرن الثاني الهجري إلى الرابع الهجري، نحن نمتلك أدلة مبكرة جدًا ومتفشية في كتب التاريخ، على أن الخليفة الفاطمي الأشهر والأشرس، "الحاكم بأمر الله" (توفي 412 هجرية) أمر بمنع "الجعَّة" ومصادرة "الخمر"، تمامًا مثلما أمر بمنع "أكل الملوخية" وقام بصبّ "العسل" في النيل، ما يعني أن المصريين لم تنقطع علاقتهم أبدًا بشرب الخمور، كما أن قصص تناول الخمور في كثير من قصور الحكم الأيوبي (إبان القرن السادس الهجري) كثيرة لدى المقريزي، بما يعكس انتشارها في مصر، وتخصيص أماكن لتناولها، حيث أظهرت المدونة التاريخية ـ لأول مرة ـ مصطلحًا يدل على ظهور نوعٍ جديد من الخمارات أُطلق عليه: "بيوت المِزْر"، يضاف إلى مصطلحات أخرى مثل "الحانات" و"القاعات" و"خصاص بولاق" وكلها أماكن لاحتساء البيرة أو الخمر عرفتها مصر خلال القرون الهجرية الأولى، الأمر الذي يشير إليه مؤرخ عظيم مثل المقريزي (764 ـ 845 هجرية) سواء في كتابه الأشهر "المواعظ والاعتبار بِذكر الخطط والآثار" أو في كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك"، الذي قدَّم لنا من خلاله توصيفًا دقيقًا لثقافة شرب الخمور، خلال العصر المملوكي بالتحديد.

أول مفاجآت المقريزي في كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك"، أن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي (532 - 589 هـ / 1138 - 1193 م) "تاب عن الخمر وأعرض عن اللهو"، بمجرد أن تم تفويضه بالوزارة ونعته بـ "الملك الناصر"، سنة 564 هجرية، وهذا الأمر لا يعنينا في شيء، سوى في قياس درجة انتشار ثقافة الخمور في ذلك الزمان، يقول في معرض تعيين مزايا صلاح الدين وتعداد حسناته وحكمته: "ففوض العاضد وزارته إلى صلاح الدين، ونعته بالملك الناصر، فمشَّى

الأحوال، وبذل الأموال، واستعبد الرجال، وتاب عن الخمر، وأعرض عن اللهو، ودبَّر الأمر في نوبة نزول الفرنج على دمياط أحسن تدبير، حتى رحلوا عنها خائبين".

وإن كان هناك من يشكك في حكاية شرب صلاح الدين للخمر، كون المقريزي لم يكن معاصرًا له، لكنه نقلها عن مؤرخين سبقوه، فإننا لا نظن أن هناك من يستطيع أن ينفي ما ورد في كتاب المقريزي، وهو يشير إلى انتشار بيوت المِزْر في الإسكندرية ـ خلال حكم صلاح الدين الأيوبي وسلالته ـ انتشارًا كبيرًا، لدرجة أنه هدم منها مائة وعشرين بيتًا، وتصديق هذه الحكاية يبدو أمرًا منطقيًّا، ليس فقط لأنها وردت عند مؤرخين آخرين، ولكن لأنها تعكس أهمية الخمور في تلك المدينة التي تمد قدميها في البحر، فقد انتشر الخمر فيها إلى درجة أفزعت المؤرخ القدير، فأشار إلى ذلك خلال سرده لأحداث سنة 577 هجرية، حيث كان صلاح الدين لا يزال حيًّا، يقول المقريزي:

"وكثرت بيوت المِزْر بالإسكندرية، فهدم منها مائة وعشرين بيتًا"، ثم يعود بعد سنوات قليلة ليشير إلى ما هو أفدح، فقد حدث انتشار لشرب الخمور والمجاهرة بها من دون أن يوقف الناس أحد، في شهر رمضان، سنة 590 هجرية، خلال حكم ابن صلاح الدين، الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، حيث ارتفع سعر العنب فجأة لكثرة مَن يعصره، وأقيمت طاحونة لطحن الحشيش في "المحمودية"، كما تم الحصول على تصاريح لفتح بيوت المِزْر، وتحصيل الضريبة عنها، يقول المقريزي:

ـ "وفي شهر رمضان كُسر بحر أبي المُنَجَا بعد عيد الصليب بسبعة

أيام، وتجاهر الناس فيه بالمنكرات من غير نكر عليهم. وكثرت المنكرات، وغلا سعر العنب لكثرة من يعصره، وأقيمت طاحونة لطحن الحشيش بالمحمودية. وحميت بيوت المِزْر، وجُعل عليها ضرائب، فمنها ما كان عليه في اليوم ستة عشر دينارًا، ومنع من عمل المِزْر البيوتي، وتجاهر الكافة بكل قبيح".

لا يتوقف المؤرخ الكبير عند رواية ما حدث، بل يحاول أحيانًا أن يقدم لنا تفسيرًا لبعض الظواهر الاجتماعية، فيورد سببًا اقتصاديًّا وجيهًا لانتشار الخمور في ولاية ابن صلاح الدين، الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، فقد كانت الضرائب التي تطلب من التجار من أجل إطعام السلطان وأهل بيته باهظة جدًا، فرأى "أرباب الدكاكين" أن يزيدوا في أسعار السلع عمومًا، وأن يرخَّص لهم المتاجرَّة في الخمور جهارًا، لسداد المطلوب أو بمعنى أصح "المعلوم"، يقول:

"فإن المتعيشين من أرباب الدكاكين، يزيدون في الأسعار العامة، بقدر ما يؤخذ منهم للسلطان. فاقتضى ذلك النظر في المكاسب الخبيثة: وضُمن المِزْر والخمر، وفُسح في إظهاره وبيعه في القاعات والحوانيت، ولم يقدر أحد على إنكار ذلك، وصار ما يؤخذ من هذا السحت ينفق في طعام السلطان وما يحتاج إليه، وصار مال الثغور والجوالي إلى مَن لا يبالي من أين أخذ المال".

ولعل تكرار الوقائع التي يشير إليها المقريزي مستخدمًا تعبير "بيوت

المِزْر"[38]، يجعلنا نظن أنها كانت هي المعادل الموضوعي لما نعرفه الآن بالخمارات، أو ما أطلق عليه المصريون دائمًا تعبير "الخمامير"، كما يجعلنا ننتبه إلى أن هذه البيوت كانت جزءًا لا يتجزأ من الثقافة المصرية، يدعمها اقتصاد وعادات وتقاليد وإجراءات مجتمعية مُعقدة، ويحكمها صراع بين فئة تريد أن تربح بصورة مسعورة من تجارة الخمور، وفئة تريد أن تفرض تصورها الديني أو السياسي أو الأخلاقي على الناس، في ظل انتشار كثيف للحشيش، الذي يرضي شربه فئة من المتدينين، فقد أقيمت إلى جوار تجارة الخمور طاحونة لطحن الحشيش في "المحمودية"، وسط مجتمع منفتح على اللهو والغناء والسمر والاستمتاع بمتع الحياة كافة.

في إطار اندهاشه من الكمية التي يباع بها الخمر في منطقة شبرا فقط، يلفتنا المقريزي إلى أن شبرا كانت توفي الخراج من مبيعات الخمور، ويصف احتفالات "عيد الشهيد" التي أبطلها الأمير بيبرس الجاشنكير، توفي (نحو عام 709 هجرية):

"وذلك أن النصارى كان عندهم تابوت فيه إصبع، يزعمون أنه إصبع بعض شهدائهم، وأن النـيل لا يزيد ما لم يُرم فيه هذا التابوت، فتجتمع نصارى أهل مصر من سـائر الجهات إلى ناحية شبرا، ويـخرج أهل القاهرة ومصر، ويركب النصـارى الخيول للـعب، ويتلألأ البر بالخيم، والبحر بالمراكب المشـحونة بالنـاس، ولا يبقـى صـاحب غـناء ولا لهو

38 ـ (المِزْرُ) معجمِيًّا هو نَبِيذُ الشعير والحنطة والحبوب، وقيل: نبيذ الذُّرَة خاصَّة، والمِزْر ضَرْبٌ من الأَشربة. وذكر أَبو عبيد: أَن ابن عمر قد فسر الأَنبذة فقال البِتْعُ نبيذ العَسَل، والجِعَةُ نبيذ الشعيرِ، والمِزْر من الذرة، والسَّكَرُ من التمر، والخَمْرُ من العنبِ، وأَما السُّكُرْكَة، بتسكين الراء، فخمر الحَبَش؛ قال أَبو موسى الأَشعري: هي من الذرة، ويقال لها السُّقُرْقَعُ أيضًا، كأَنه معرب سُكُرْكَةٍ، وهي بالحبشية".

حتى يحضر، وتتبرج زواني سائر البلاد، ويباع في ذلك اليوم من الخمر (الكثير جدًا)، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من ثمن الخمر، وتثور في هذا اليوم الفتن ويقتل عدة قتلى. فأمر الأمير بيبرس بإبطال ذلك، وألا يرمى التابوت في النيل".

بيوت المسكرات

بيد أن غرام تقي الدين المقريزي بالحديث عن الخمور وسيرتها وثقافتها في مصر قاده في كتابه "المواعظ والاعتبار بِذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية" إلى الحديث عن كثير من التفاصيل الدقيقة بشأن أنواع الخمور وصناعتها وطرق تناولها في مصر، خلال العصر المملوكي، تحت عنوان: "ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم":

"وأهل مصر يشرب الجمهور منهم من ماء النيل، ...، وأجود الأشربة عندهم الشمسيُّ، لأن العسل الذي فيه يحفظ قوته ولا يدعه يتغير بسرعة، والزمان الذي يعمل فيه خالص الحرّ فهو ينضجه، والزبيب الذي يعمل منه مجلوبٌ من بلاد أجود هواء، و"أما الخمر" فقل من يعتصرها إلا ويلقي معها عسلًا وهي معتصرة من كرومهم، فتكون مشاكلة لهم، ولهذا صاروا يختارون الشمسي عليها، وما عدا الشمسي والخمر من الشراب بأرض مصر فرديء لا خير فيه لسرعة استحالته من فساد مادته النبيذ التمري والمطبوخ والمِزْر المعمول من الحنطة".

على الرغـم من أنه كان من أكـثر المـؤرخين حديـثًا عـن الخمـور، إلا

أن تقي الدين - في المقابل - لم يخالف كاتبي الحوليات في الاحتفاء بقرارات الولاة بإبطال الخمور وتعفية بيوت المسكرات، وهو يُورد من ذلك الكثير، لافتًا إلى أن الحجم الكبير للخسائر التي مُنيت بها الإدارة المصرية - على سبيل المثال - في عهد الظاهر بيبرس، خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري، حينما أبطل الخمر فقد كان "ضمانها" نحو ألف دينار في اليوم يقول المقريزي:

"وفي خامس عشري شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة "هجرية" -أي نحو منتصف القرن الثالث عشر الميلادي - قريء بجامع مصر مكتوب بإبطال ما قُرر على رسوم ولاية مصر من الرسوم وهي مائة ألف درهم مصرية، فبطل ذلك، وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها سنة خمس وستين وسمائة "هجرية"، وأمر بإراقة الخمور وإبطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الخانات والخواطي بجميع أقطار مملكة مصر والشام، ثم أصدر القرار مجددًا "في تاسع جمادى الآخرة سنة ست وستين وستمائة، أمر الملك الظاهر بيبرس بإراقة الخمور وإبطال الفساد ومنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء من جميع القاهرة ومصر وسائر الأعمال المصرية، فتطهرت أرض مصر من هذا المنكر ونهبت الخانات التي كانت معدة لذلك" وهو الأمر الذي تكرر في عامي 669 هـ و674 هـ [39]

نستطيع أن نفهم عدة أمور مـهمة من كلام المقريزي، عن واقعة جرت قبيل ميلاده بنحو قرن من الزمـان، أولـها أن الظاهر بيبرس كان يعاود كل فترة الهجوم على الخمـور في محاولة منه لإبطالها، لكنها في الغالب

39 ـ "المواعظ والاعتبار بِذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية"، تقي الدين المقريزي.

لم تكن محاولات قابلة للنجاح أبدًا، فقد كانت الناس الراغبة في ممارسة تجارتها وتحقيق أرباحها سرعان ما تعود سيرتها الأولى في تقديم خدماتها للراغبين، ويبدو أن قطاعًا واسعًا من المصريين كان يتضرر من هذا القرار، بدليل أن ما أورده المقريزي وغيره من المؤرخين من قصائد كُتبت حسرةً على انقطاع الخمور.

الحق أن قصائد الشاعر بهاء الدين زهير، الذي كان مقربًا من آخر سلاطين الأيوبيين، الصالح "نجم الدين أيوب"، المولود في القاهرة مطلع القرن السابع الهجري، قدَّمت صورةً حيةً عن قيمة الخمر في العصر المملوكي الأول، ويتضح من هذه القصائد، أن الخمر كان متاحًا في قصور المماليك ورجال الحاشية[40]، فها هي كأس الخمر تحتل مكانًا في حياة كثير من سلاطين المماليك، الذين وُصِفوا بأنهم مُدمنون للخمر، وقد ذُكر ذات مرة عن الأمير الكبير "بَيْسِري"، أنه كان عاجزًا عن المشاركة في الأمور، لأنه كان مستغرقًا تمامًا في الشراب".

ملهى القرن الثامن الهجري

تتعدد المصطلحات التي يطلقها المقريزي على أماكن احتساء الخمور، التي عرفها العصر المملوكي، بما يشير إلى توسع المجتمع المصري بكل فئاته في اتخاذ الا شكال والأماكن الملائمة لممارسة متعه الروحية من رقص ولهو وشراب، واستخدم المقريزي تعبيرات:

40 ـ راجع المزيد من قصائد المديح في الخمور والحشيش في ذلك العصر في كتابي: "الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك" تأليف الدكتور محمد رجب النجار، و"الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي" تأليف أحمد صادق الجمَّال.

"بيوت المِزْر" و"القاعات" و"الحوانيت"، ونحن نرجح أنه يقصد الا شكال الأولى لما بات يعرف بـ "الخمارات" أو ما أطلق عليه المصريون "الخمامير"، الأمر الذي يجعلنا ننتبه إلى أن هذه البيوت كانت دائمًا لها "ضامن" يقوم على سداد ضريبتها - حتى أن نابليون بونابرت حين جاء في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وجد ضامن الخمر أو ملتزم ضرائب الخمامير وقتها هو المواطن المسيحي المصري يدعى "يني الخمار" على نحو ما سنقرأ في الفصل المقبل - حيث كانت الخمور قد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من ملامح الاقتصاد المصري وعادةً لدى قطاعات واسعة من أبنائه، مرتبطة بالتأكيد بعادات وتقاليد تتعلق بمواسم الزرع ومواسم الحصاد والعصر، وهي التقاليد القديمة التي عرفتها مصر القديمة، قبيل مئات السنين من دخول الإسلام إلى مصر.

الحق أن تجارة الخمور استمرت ـ كأي سلعة مهمة ـ بحكم الطلب عليها محكومة بصراع بين فئتين، الأولى تريد أن تربح بصورة مسعورة من تجارة الخمور كونها سلعة رائجة مضمونة الأرباح، والثانية في المقابل تريد أن تفرض تصورها الديني أو الأخلاقي أو السياسي على الآخرين، في ظل انتشار كثيف لمخدر الحشيش، الذي يرضي شربه فئة أخرى من المتدينين، والمقريزي ـ بدوره ـ لا ينسى الإشارة إلى في إحدى حكاياته إلى تأسيس طاحونة لطحن الحشيش في "المحمودية"، في زمن كانت تجارته مباحة وقانونية وتحصَّل عنها الضريبة، وسط مجتمع منفتح على اللهو والغناء والسمر والاستمتاع بمتع الحياة كافة.

لقد تـطرق المقريزي في كتابه "السلوك لمعرفة دول المـلوك" كثيرًا إلى وقائع متعلقة بـحوادث قتل وأوبـئة وأزمـات الأسـعار وخـروج الناس على بعض القضاة ورجال الحكم والمال بسبـب الغلاء أو المـظالم، ما

يجعلنا نتوقف أمام إحدى الحوادث الكاشفة والتي لم تلفت انتباه أحد من باحثينا، حيث يحكي المقريزي فيها عن ظهور مفاجئ لبعض الحانات الكبرى في القاهرة، سنة 744 هجرية "أي نحو عام 1344 ميلادية"، وقبل عشرين عامًا فقط من ولادة "المقريزي"، ويبدو أنه تحقق منها من كبار السن ممن يثق بهم، حيث كانت هذه الحانة على ما يبدو قد أصبحت ظاهرة مجتمعية، خلال حكم السلطان الملك الصالح عماد الدين، وكانت تسمى "خزانة البنود"، مقدمًا وصفًا تفصيليًّا لأقدم ملهى ليلي يمكن أن تسمع عنه في القرن الثامن الهجري.

يتحدث الرجل عن ملهى لا تقدم فيه خدمات الرقص والغناء والشراب بأنواعه وأشكاله المختلفة فقط، بل كانت تمارس فيه الرذيلة أيضًا، حيث حوَّل المصريون سجنًا للأمراء والمماليك إلى ملجأ لكل هارب أو هاربة من قيود الأسرة والمجتمع، ويبدو أنه كان محصنًا بطريقة ما، حيث يشير المقريزي إلى أن أول قرار اتخذه الأمير الحاج آل ملك" نائب السلطنة هو القضاء على "خزانة البنود" التي يبدو أنها مارست نشاطها وقدمت خدماتها لسكان القاهرة خلال سنوات طويلة قبل ذلك، يقول:

"كانت خزانة البنود سجنًا يُسجن فيه الأمراء والجند والمماليك، وقد سكنها الأرمن الذين جاءوا أسرى إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون فعمرها مساكن لهم، وتوالدوا بها وعصروا الخمر بحيث أنهم عصروا في سنة واحدة اثنتين وثلاثين ألف جرَّة".

ليس هذا فقط، بل أشار "المقريزي" إلى ما يمكن فهمه اليوم بتحصيل الضريبة على الراقصات والعاهرات وكل المنتمين إلى هذه المهنة،

مشيرًا إلى قرار أصدرته الإدارة الحاكمة "سنة 778 هجرية"، وهو قرار يصلح أن نتعرف من خلاله على التركيبة المزاجية الخاصة لهذا الشعب، وطريقته الصاخبة والمنفلتة – أحيانًا - في طقوس الاحتفال، كما يصلح أن نتعرف منه على حجم الاستفادة الكبيرة التي حققتها الدولة المملوكية من عوائد الضريبة على أفراح ومباهج هذا الشعب، فقد صدر قرار "سنة 778 هجرية" بإبطال ضمان المغاني والأفراح بجميع أعمال مصر من أسوان إلى العريش، وهو ما يمكن أن نعتبره اليوم إلغاء التصريح لعدد من المهن المرتبطة بالأفراح، كالمطربين والراقصات والعازفين وكل أرباب المهن العاملة في هذا السياق، بما فيها البغايا وتجار الخمور، وهذا الإلغاء لا يعني أنه توقف تمامًا، بل يعني أنه توقف بشكل مؤقت فقط، لأن الأصل كان استمرار هذا الضمان.

المقريزي يلفتنا إلى ذلك حين يقول إن "وزراء السوء كانوا أعادوا هذا الضمان لكثرة ما يُتحصل منه"، الأمر الذي يسمح لنا أن نستخلص أن الإدارة المملوكية التي كانت تحكم وقتها رأت - طوال الوقت - أن أفراح المصريين واحدة من أكبر أبواب تحصيل الضريبة، ونحن نصدق كل ما قال المقريزي في هذا السياق، ونصدق أيضًا أن قرار الإلغاء لم يستمر طويلًا وهو ما نعرفه من المقريزي نفسه، بعد سنوات في صفحات قليلة من كتابه "المختصر"، فقد عادت التجارة مجددًا، لكن هذا ليس هو المهم، بل الأهم أن نقرأ تفاصيل تلك الضريبة على الأفراح والأعراس وسائر الاحتفالات، لدرجة أن المرأة المصرية مهما علت مكانتها لم تكن تستطيع أن "تنقش" قدميها بالحناء، من دون أن تعرِّف الضامنة "جباة الضرائب".

ها هو "المقـريزي" يخبـرنا التـفاصيل الفـادحة لهـذه الضريبة، التي

كانت مقررة في مصر لوقت طويل خلال القرن الثامن الهجري، لدرجة أن جباة الضرائب كانوا يدورون طوال الليل على بيوت المغنيات والبغايا، لمعرفة من باتت خارج بيتها، لتدفع ما عليها من ضريبة مقررة، يقول "المقريزي":

"فإن العرس ما كان يتهيأ حتى يُغرم أهله خمسمائة درهم فما فوقها، بحسب حال أهل العرس، ولا تقدر امرأة وإن جلَّت تنتقش إلا بإطلاق من الضامنة، ولا يضرب بدف في عرس أو ختان أو نحو ذلك إلا بإطلاق، وعلى كل إطلاق فريضة مال مقررة في الديوان، وكان على كل مغنية قطيعة تحملها إلى الضامنة، فإن باتت في غير بيتها قامت بمال للضامنة، وتدور في كل ليلة على بيوت المغاني جماعة من جهة الضامنة لمعرفة من باتت منهن خارج بيتها، وكان على البغايا ضرائب مقررة..".

خزانة البنود

"كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك" تضمن كثيرًا من الحكايات الكاشفة لرغبة المصريين في الحصول على حقوقهم في الفرح، ويروي قصة أحد أمراء المماليك الذي كان عاشقًا لشرب الخمر لدرجة أن الجِمال كانت تحملها إلى بيته، منتصف القرن الثامن الهجري، في عهد الملك الصالح عماد الدين أبو إسماعيل ابن الملك الناصر محمد، وهذا الأمير المملوكي عاشق الخمر يدعى "ملكتمر الحجازي"، والحكاية التي تكشف أمرين مهمين:

الأول أن انتشار الخمور بين جموع المصريين كان بين الأغنياء والفقراء إلى حد سواء، والثاني أن حجم انتشار تجارة الخمور في ذلك الزمان البعيد كان كبيرًا، فقد مرت الجِمال التي تحمل الخمر إلى الأمير المملوكي الغني ونافذ السلطة على "شباك النيابة"، أثناء جلوس نائب السلطان "الحاج آل ملك"، وقد كان رجلًا متعنتًا، فبعث نقيبًا ليتتبعها ليعرف أي بيت تدخل، فلما دخلت الجِمال التي تحمل الخمر بيت الأمير المملوكي "الحجازي"، علم الأمير ملكتمر بأمر النقيب واستدعاه وضربه ضربًا مؤلمًا، الأمر الذي أثار حفيظة نائب السلطان، الذي استنكر على الحجازي تعاطيه للخمر، يقول المقريزي: "فأتاه الحجازي وفاوضه مفاوضة كثيرة، وقام مغضبًا".

ومن أعجب ما يحكيه "المقريزي"، ليؤكد أن المصريين كانوا دائمًا شعبًا "ابن حظ"، يسارع إلى اقتناص حريته فورًا، أنهم كانوا سرعان ما ينتهزون الفرص المتاحة من أجل ممارسة حرياتهم والانطلاق إلى بيوت الغناء وأماكن السهر، بل إنهم كانوا يصلون - في بعض الأحيان - إلى درجة من "الفحش"، وهو ما نعرفه في أحداث سنة 747 هجرية، حين أعلن عن تسامح السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون مع الرعية، بما يجعلنا نطلق عليه "ملك الحريات"، وقد كان مؤمنًا بالحريات الشخصية فعلًا، ونقل عنه "المقريزي" عبارة تؤكد صحة ذلك، فقد قال هذا السلطان ذات مرة: "خلوا كل أحد يعمل ما يريد"، وينقل لنا "المقريزي" بعض تفاصيل هذا الحدث الجلل، الذي التمس فيه المصريون حريتهم في ذلك الزمان البعيد إلى أقصى حد يمكن توقعه.. ترى ما الذي فعله المصريون بهذه "الحرية الشخصية" المطلقة منتصف القرن الثامن الهجري؟..

لنترك للمقريزي يحكي لنا بلغته حكاية "خزانة البنود" التي وردت في "السلوك لمعرفة دول الملوك" ضمن أحداث سنة 744 هجرية:

"وفُتح شباك النيابة وجلس فيه الأمير آل ملك للمحاكمات، فأول ما بدأ به أن أمر والي القاهرة بأن ينزل إلى خزانة البنود بالقاهرة، ويحتاط على ما بها من الخمر والبغايا، ويخرج من فيها من النصارى الأسرى، ويريق ما بها من الخمور، ويخربها حتى يجعلها دكًا. وسبب ذلك أن خزانة البنود كانت يومئذ حانة، بعدما كانت سجنًا يسجن فيه الأمراء والجند والمماليك، كما أن خزانة شمائل سجن لأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطريق، فلما كانت دولة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته من الكرك وشغف بكثرة العمارات، اتخذ الأسرى وجلبهم إلى مصر من بلاد الأرمن وغيرها، وأنزل عدة كثيرة منهم بقلعة الجبل، وجماعة كثيرة بخزانة البنود، فملأ أولئك الأرمن خزانة البنود حتى بطل السجن بها، وعمرها السلطان مساكن لهم، وتوالدوا بها وعصروا الخمور بحيث أنهم عصروا في سنة واحدة اثنتين وثلاثين ألف جرَّة، باعوها جهارًا. وكان لحم الخنزير يعلق عندهم على الوضم، ويباع من غير احتشام. واتخذوا أماكن لاجتماع الناس على المحرمات، فيأتيهم الفُسَّاق ويظلون عندهم الأيام على شرب الخمور ومعاشرة الفواجر والأحداث. ففسدت حرم كثيرة من الناس وكثير من أولادهم وجماعة من مماليك الأمراء فسادًا شنيعًا، حتى إن المرأة إذا تركت أهلها أو زوجها، أو الجارية إذا تركت مواليها، أو الشاب إذا ترك أباه ودخل عند الأرمن بخزانة البنود لا يقدر أحد أن يأخذه منهم، ولو كان من كان".

هو ليس مجرد ملهى ليلي وبيت للدعارة في القرن الثامن الهجري فقط، بل "شراكة تضامنية" نادرة بين عدد من الخارجين على القانون

بكسر كل التابوهات الدينية والاجتماعية، وبالتالي حظيت هذه الشراكة بكثير جدًا من المناصرين وراغبي المتعة والكثير جدًا من المكاسب بل وأصبح منافسوها يريدون التخلص منها لتزداد مكاسبهم، وينتبه المقريزي إلى أن خزانة البنود لم تتعرض للإبادة إلا حينما أصبحت تمتلك قوة اجتماعية واقتصادية جاذبة جعلت أكبر المنافسين يحقد عليها، ففي هذه الحالة لابد أن تتدخل السلطة للحفاظ على علاقات الملكية السائدة، خصوصًا أن نائب السلطان "آل ملك" كان ابتنى لنفسه دارًا في ظاهر الحسينية وعمَّرها وأنشأ بجانبها جامعًا وحمامًا وربعًا وحوانيت وبقيت في نفسه حزازات من أصحاب خزانة البنود، يقول المقريزي :"حتى أمكنته القدرة منهم، وانبسطت يده فيهم بكونه نائب السلطان، فنزل إلى القاهرة ومعه الحاجب وعدة من أصحاب النائب وهجموا خزانة البنود، وأخرجوا جميع سكانها وكسروا أواني الخمر، فكانت شيئًا يجل وصفه كثرة، ...، فكان يوم هدم خزانة البنود يومًا مشهودًا من الأيام المشهورة المذكورة، عَدَلَ هدمها فتح طرابلس وعكا، لكثرة ما كان يعمل فيها بمعاصي الله".[41]

41 ـ "مختصر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك" تقي الدين المقريزي اختصار وتقديم عمر مصطفى لطفي، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2020.

الفصل السادس

العصر العثماني:

«أمانة مقاطعة الخمر»[42]

42 ـ المقصود بالعصر المملوكي أو العصور المملوكية تلك التي تبدأ من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، مرورًا بالمماليك البحرية، فالمماليك البرجية (الجراكسة)، فالمماليك العثمانية التي حكمت مصر تحت إشراف الباب العالي في الأستانة، وهي فترة تمتد من الربع الثاني من القرن السابع الهجري (منتصف القرن الثالث عشر الميلادي) وتستمر حتى الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري (آخر القرن الثامن عشر الميلادي تمامًا).

"وكان الذي وجدها أبوالحسن الصائغ الخراساني، هو ونفر معه، فأكلوا على شاطيء النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمرًا سكروا منه، وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع فاغتم الرجل، وجاء بها إلى هارون فأسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكي، وأما الآنية النحاسية التي تجعل الماء خمرًا فإنها منسوبة إلى قلوبطرة بنت بطليموس، ملكة الإسكندرية"

"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" تقي الدين المقريزي

نستطيع أن نعتقد في أن الثقافة المصرية اخترعت - منذ وقت مبكر- شكلًا شعبيًّا لأماكن احتساء الخمور هو "الخمامير" و"البوَظ"، مع الوضع في الاعتبار أنها تختلف عن "البارات" ـ غربيّة الشكل التي تعتمد على منضدة وكرسيين والتي بدأ تأسيسها في مصر مع دخول الحملة الفرنسية، كما سنبيِّن في الفصل التالي ـ أما "البوَظ" فهي مكان مصري لشرب مشروب البوظة المُسكر ـ حيث يجلس الشاربون على الأرض أو على الكنب أو الدِكك، ولا نستطيع أن نتبيَّن متى بدأت "البوَظ" في الانتشار بالضبط، لكننا نعرف أنها اعتبرت امتدادًا طبيعيًا وتطورًا بسيطًا على "بيوت احتساء الخمور في مصر القديمة"، فالبوظة قريبة الشبه من مشروب "الجعَّة" الفرعونية، وهذه الاستمرارية في ظاهرة بيوت احتساء الخمور تشير إلى أن "البوَظ" قد تكون واحدة من العلامات "المطمورة" لكن المهمة في شخصيتنا القومية، خصوصًا إذا لاحظنا وجود أشكال شعبية قديمة قريبة من فكرة الخمارات في مدن عربية أخرى كـ "حلب" و"بغداد"، ونستطيع أن نستشهد مثلًا بوجود أشكال قديمة "مطمورة" من البارات عند أقرب الأشقاء العرب إلينا وهم أهلنا في السودان، خصوصًا في مناطق شمال السودان، ووداي حلفا، وتُعرف البارات باسم "الإندايات" - والمفرد "إندايا"، وهي تعريب لكلمة "نادي" - وكانت موجودة حتى العقد السابع من القرن العشرين، حيث كتب عنها الكاتب والروائي الراحل عبدالله الطوخي صورةً قلمية مذهلة في كتابه الفريد عن رحلته إلى منابع النيل: "نبع الينابيع"، فقد دخل بفضوله الصحفي والإبداعي إحدى تلك "الإندايات" ووصفها لنا

بدقة منتصف السبعينيات من القرن الماضي[43].

الحق أننا ننتهز الفرصة ونحن نتحدث عن العصر العثماني لكي نلقي نظرة على حالة الخمور في العواصم العربية التي شغلت السلاطين العثمانيين في ذلك الزمان، لأننا ممَن يعتقدون أن المواطن العربي قاوم كل محاولات التجهيل والتضليل والتشويه الثقافي التي مارسها الاحتلال العثماني ضده، ذلك الاحتلال الذي كان يستهدف تحطيم الروح المعنوية عند أهالي المستعمرات، لكن بفضل كفاح الناس ومقاومتهم المستمرة للسلطة، لم يكن عصر الولاة العثمانيين كله ظلام دامس كما تشير دراسات حديثة، على الأقل في العواصم العربية الكبرى، والأرجح أن القريحة المصرية استطاعت أن تنتج "البوظة"، وهو مشروب ذو أصل مصري قديم يُصنَّع محليًّا، في تلك اللحظة التي كانت تقاوم فيها السلطة العثمانية الغاشمة، التي دخلت أرض مصر 1517 ميلادية فصادرت الأمزجة وزاحمت النفوس واقتطعت من الأقوات.

ومن أبرز الباحثين الأجانب الذين اقتربوا من ملامسة التاريخ الوجداني للثقافة العربية في العصر العثماني يشير أندريه ريمون في كتابه اللافت "المدن العربية الكبرى في العصر العثماني"، إلى أن "المقاهي" انتشرت بسرعة في المجتمع العربي مطلع القرن السادس

43 ـ الحق أن تاريخ السُّكْر في المجتمع السوداني أطول من أي اختصار، بينما أغلق نظام الرئيس الأسبق جعفر نميري البارات في محاولته فرض الشريعة الإسلامية في السودان أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، لكن السودان ظل يحتفظ بـ "صناعة العرقي في المنازل" رغم الوجه الإسلامي لحكومات الرئيس الأسبق عمر البشير، وهي المهارة التي كانت تجيدها بعض السودانيات كجزء من معارفهن المطبخية، في حقب زمنية سابقة، أما "الإندايات" فهي نوع خاص من المقاهي كان موجودًا في شمال السودان، تديره وتقوم على الخدمة فيه النساء، ويقدمن فيه مشروب "المريسة" المسكر والشعبي والرخيص: "فيشربون ويغنون ويرقص النساء والرجال ويقضون وقتًا سعيدًا"، حسب تعبير عبدالله الطوخي في "نبع الينابيع"، مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام 2000.

عشر الميلادي، دليلًا على سرعة انتشار المنتجات الحديثة، حيث أدت المقاهي إلى حدوث ثورة حقيقية في أنماط المعيشة، على الرغم من أنها لم تكن مقبولة من المؤسسات الدينية الإسلامية، ومنها المقهى، على الرغم من أنه يتجنب الإشارة إلى دور الخمارات، رغم أنه يُورد نص قرار للسلطان العثماني بإغلاق أربعة محال لبيع الخمور في حلب عام 1733 ميلادية، يضيف ريمون:

"لقد عرفت مصر المقهى خلال السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر، والذي شاع بعد ذلك بالرغم من تحفظات السلطات الدينية الأكثر تشددًا والتي لم تستسلم إلا بعد أمد طويل، وقد أجرت إيفليا شلبي إحصاء لعدد المقاهي في القاهرة فوجدتها 643 مقهى نحو عام 1650، ويقدر كتاب "وصف مصر" عددها في نهاية القرن الثامن عشر بألف ومائتي مقهى، وقد أدى هذا المكان الجديد لتحقيق اللقاءات إلى إحداث مفهوم جديد تمامًا للعلاقات الاجتماعية، وإلى وضع تنظيم جديد - خلال أمد طويل - للحياة الجماعية، وقد كانت هذه الحياة قائمة من قبل على أساس العلاقات التي تنشأ في الجامع أو في الحمام العمومي"[44].

نحن نعتقد أن الاهتمام بالخمور وصناعتها - ومن ثَمَّ بيعها للجمهور- في المدن المصرية الكبرى، كان أمرًا متاحًا ومعروفًا وبديهيًّا، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عـشر ميلادية، ولولا محاولات المؤرخين مجاملة الحكام بامتداح قراراتهم المتعلقة بإغلاق الخمارات، في شهر رمضان من كل عام، لما أمكننا تتبع انتشار هذه الخمارات في مدن

44 ـ "المدن العربية الكبرى في العصر العثماني"، تأليف أندريه ريمون، نسخة ألكترونية.

عربية عدة ومعرفة حجم الإنفاق على هذه المشروبات، خلال القرون الماضية، ولما استطعنا التطلع إلى هذه العقلية الانتهازية التي سوَّغت بها السلطات العربية خلال القرون الماضية فكرة تحريم الخمور على العامة والغلابة فقط، بينما تركتها تنتشر وتتزايد لكي تحصِّل عنها الضريبة مدهشة الاسم ضريبة "أمانة مقاطعة الخمر"، حتى فشت الخمر في أوساط قصور الحكم وفي بيوت أبناء الطبقة الغنية، وطبعًا في أوساط الأجانب وغير المسلمين، وأصبحت "مقاطعة الخمر" مفردة لا تعني عند السلطة التي أقرتها سوى الارتماء في أحضانها حتى الثُّمالة.

ففي حين اعتمدت قوانين الدولة العثمانية الخمور بوصفها من المحرَّمات على المسلمين، وفرضت ذلك بدرجات متفاوتة من القسوة على أهالي الولايات التي سيطرت عليها، إلا أن الثابت هو أن خزائن قصور الطبقة الحاكمة العثمانية كانت لا تعرف سوى الأنواع الفاخرة من الخمور المعتقة جيدًا، كما أن قوانين هذه الدولة بدأت في تحصيل مبالغ مالية مُعتبرة كحصيلة لضريبة على الخمور اعتبارًا من عام 1591 ميلادية، وإن كنا لم نتأكد بعد من أن السلطان "سليمان القانوني" أبرز السلاطين العثمانيين قد مات جراء الإفراط في تناول الخمور أم لأي سبب آخر، فإن المعروف هو أن الدولة العثمانية سمحت لغير المسلمين بتناول المشروبات الكحولية، حيث اشترطت الدولة أن تقام الخمارات في أحياء غير المسلمين، الأمر الذي زاد من قيمة بعض الأحياء المخصصة للأجانب في بعض المدن العربية، حيث جاء في القانون العثماني:

"كما سُمح في أراضي الدولة العثمانية بفتح الخمارات التي يشرب فيها غير المسلمين الخمر ويلهون فيها. والشرط الوحيد في هذا ألا

يؤدي بمضرة للمسلمين، مثلا لا يُباع الخمر ولا تُفتح الخمارات إلا في الأحياء والمحلات التي تكون أكثريتها القاهرة من غير المسلمين، وقد كان هذا من أحد الأسباب القوية وراء وجود حارات وأحياء للمسلمين وأخرى لغير المسلمين"[45].

تقول وجهة النظر المدافعة عن الفقه القانوني للدولة العثمانية إن "الخمر الممنوع والمحرم على المسلمين، والمسموح - بشروط معينة - لغير المسلمين، وكذلك لحم الخنزير، يُعد مالًا وبضاعة بالنسبة لغير المسلمين (ولا تُعد مثل هذه الأشياء مالًا وبضاعة بالنسبة للمسلمين)، لذا تستوفي الدولة الإسلامية الرسوم عنها، من قبل دائرة مالية، تُسمى "أمانة مقاطعة الخمر"، وهذا موجود في الفقه الحنفي - على وجه الخصوص - حيث كانت الدولة العثمانية تعتمد المذهب الحنفي مذهبًا رسميًّا.

لكن الحكاية العثمانية البليغة تقول لنا شيئًا آخر في النهاية لا علاقة له بالمذهب الحنفي، فحين عَلم السلطان "سليمان القانوني"، أن بعض المسلمين بدأوا يرتادون هذه الحانات ويشربون الخمر، يُقال إنه أمر بإلغاء هذه الدائرة المالية، ومنع إدخال الخمور إلى أراضي الدولة، ومنع تصنيعها كذلك، كما قام بسد جميع الخمارات والمقاهي التي يُشرب الخمر فيها، ولكن هذا المنع رُفع - ويا للمفارقة - في عهد ابنه سليم الثاني، الذي سمَحَ مرة أخرى لغير المسلمين بشرب الخمر، لتعود المياه مرة أخرى إلى مجاريها.

45 ـ "الدولة العثمانية المجهولة 303 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية"، تأليف أحمد آق گوندوز وسعيد أوزتورك، وقف البحوث العثمانية، عام 2008.

الآنية السحرية

إن التراث الثقافي الشفاهي العربي كله من "الشعر الشعبي والأمثال والأغاني والقصص والمواويل والملاحم الشعبية العربية، بالإضافة إلى "حكايات ألف ليلة وليلة" يُخبرنا الكثير عن المواطن المصري والعربي الذي قاوم عبر العصور فكرة الاستسلام لروح الثقافة السائدة، وقد برهنت على ذلك الباحثة المرموقة في تاريخ العصر العثماني نيللي حنا، حيث كشفت أن قطاعًا عريضًا من الطبقة الوسطى المصرية - خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين - تخلص من نير الثقافة السائدة، وهي ثقافة دينية في عمومها، حين برز الدور الكبير للطبقة الوسطى كمُستهلكة ومنتجة للكتب على سبيل المثال، وهي تطالب بالبحث عن خصائص ثقافية خاصة، في الأقاليم التي كانت تابعة للدولة العثمانية، بدلًا من البحث عن ثقافة "عثمانية" غير متوفرة دائمًا في هذه الأقاليم، التي أكدت أنها نجحت في الوصول إلى طرق للتخلص من الثقافة التي تحمل وجهة نظر السلطة.

تقول حنا في كتابها المهم "ثقافة الطبقة الوسطى في العصر العثماني": "لقد ساعدت بعض العوامل الاقتصادية على صياغة تلك الثقافة ذات التأثير على نطاق جغرافي واسع، ومن ثم فإن دراستنا لهذه الظاهرة تساعدنا على تبين أرضية مشتركة بين الشمال والجنوب من البحر المتوسط، فالرأسمالية التجارية التي ساعدت على تكوين ثقافة الطبقة الوسطى بالقاهرة، كانت مصدرًا لكثير من مظاهر ثقافة الجماعات الحضرية في البندقية (فينيسيا)، على سبيل المثال، وعلى

النهج نفسه، تفترض وجود أرضية مشتركة مع ولايات الدولة العثمانية التي شهدت ظروفًا مماثلة. وهكذا بدلًا من البحث عن ثقافة "عثمانية"، في أقاليم وبين قوى اجتماعية لا وجود لها، نستطيع أن ننظر إلى نتائج نمط اقتصادي مشترك، في بعض المناطق الحضرية في الإمبراطورية العثمانية التي شهدت ظروفًا متناظرة".

وبالمثل نعتقد أن متغيرات اقتصادية واجتماعية أسهمت في نمو "نظام محلي" يلبي احتياجات الراغبين من المواطنين في تناول الخمور، وسط مناخ تجاري نشط وحافل بعدد كبير من الأجانب، خصوصًا من بلدان شمال البحر المتوسط، وبالمثل أيضًا، نستطيع أن نتبين تلك الأرضية المشتركة بين شمال وجنوب البحر المتوسط، حيث أن الرأسمالية التجارية التي ساعدت على تكوين ثقافة الطبقة الوسطى بالقاهرة، كانت مصدرًا لكثير من مظاهر ثقافة الجماعات الحضرية في البندقية (فينيسيا)، على سبيل المثال، خصوصًا فيما يتعلق بموضوع الخمور، فقد كان المنتج المحلي مثل البوظة متوفرًا للفقراء، بينما كانت المشروبات المستوردة من العواصم الأوربية عبر البحر المتوسط دائمًا - ومنذ ما قبل الميلاد - توفِّر مصدرًا للمشروبات الفاخرة من الخمور للأمراء والأثرياء.

نحن نعتقد أن الثقافة السائدة في عدد من العواصم الكبرى ضد نظام الحكم المملوكي أو العثماني فيما بعد، كانت هي شُرب الخمور في أماكن مخصصة لها، وربما كان مشروب "البوظة" بالذات، يستحق أن يحتل مساحة من الاهتمام في هذا السياق، إذا كنا نريد أن نؤرخ بدقة للوجدان الشعبي "المحلي"، وبالأخص إذا أردنا أن نتحدث عن ثقافة الطبقة الوسطى في الدولة العثمانية - التي أسسها عثمان الأول بن

أرطغرل واستمرت نحو 600 سنة، من 1299 وحتى 1923 ميلادية - لأننا لن نجد كما قالت حنا ثقافة "عثمانية" في مصر ـ وبالتالي ننظر إلى "الخمارات" و"البوظ" كنمط اقتصادي مشترك يعكس جانبًا من الثقافة الروحية "الأصيلة ـ المطمورة" للمجتمع العربي، وقد تكرّر هذا النمط بالإضافة إلى القاهرة في مدن مثل "حلب" و"عكا"، وهي المدن التي عاشت "ظروفًا مُتناظرة" تحت حكم الإمبراطورية العثمانية.

حتى قبل أكثر من مائة عام، من هجوم قوات السلطان سليم الأول على مصر عام 1517، بغية احتلالها وفرض سيطرة السلطنة العثمانية عليها لضمان قطف ثمرتها الاقتصادية الضخمة، كانت الثقافة المحلية المصرية في العصر المملوكي تعرف الكثير جدًا عن الخمور وانتشارها وتداولها، من دون أن تصدر قرارات تحريم يُعتد بها، لدرجة أن مؤرخًا بحجم تقي الدين المقريزي، ينقل لنا في كتابه "المواعظ والاعتبار بِذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية" تحت عنوان "ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم" تفاصيل دقيقة عن أنواع الخمور وصناعتها وطرق تناولها في مصر، ولم يفته أن يدهشنا بتفتحه وذكائه وسعة اطلاعه على أنواع الخمور والفروق الدقيقة بينها فقط، بل شاء أن يضاعف دهشتنا برواية تكشف - ولو أسطوريًّا على الأقل - عن شره أحد حكام مصر في عهد الدولة الطولونية إلى الخمور، وهي رواية لم نصادف مثيلًا لها، حتى في حكايات "ألف ليلة وليلة"، حيث عرض الحاكم "بعض ملكه لشراء "آنية" سحرية، يتحول الماء فيها إلى خمر.

المقريزي يحدثنا عن "آنية" إذا وضِع فيها الماء صار خمرًا في لونه ورائحته وتأثيره، ويقول إنها اكتُشفت في منطقة "أطفيح" - في محافظة الجيزة - في عهد هارون بن جارويه بن أحمد بن طولون -

رابع حكام الدولة الطولونية - ويضيف: "وكان الذي وجدها أبوالحسن الصائغ الخراساني، هو ونفر معه، فأكلوا على شاطئ النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمرًا سكروا منه، وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع فاغتم الرجل، وجاء بها إلى هارون فأسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكي، وأما الآنية النحاسية التي تجعل الماء خمرًا فإنها منسوبة إلى قلوبطرة بنت بطليموس، ملكة الإسكندرية".[46]

السلطان السكّير

الشاهد أن ارتباط الخمور في الوجدان الشعبي بتحقيق السعادة والانتشاء، جعلها دائمًا على هامش أنشطة ترتبط بالدعارة[47]، التي كانت حقًا مشروعًا وتحصل الدولة على ضريبة منه، ما جعل الناس راغبة في الحفاظ على حقها أيضًا في تناول الخمر، في هذا الزمن البعيد، كجزء لا يتجزأ من أنشطة أكثر إلحاحًا وحقوقًا أولى بالرعاية، الأمر الذي يجب أن نفهم من خلاله، لماذا كانت تجارة الخمور سرعان ما تعود في كامل نشاطها خلال أيام قليلة، بعد زوال كل قرارات وتعليمات الحكام بمنعها.

لكن تقي الدين لم يخالف كاتبي الحوليات في الاحتفاء بقرارات ولاة

46 ـ هذه الحكاية رواها أيضًا ابن إياس في "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، الجزء الأول دولة أحمد بن طولون، وأضاف:"وكانت هذه الشربة من صنعة الحكماء اليونانية".

47 ـ كانت الدعارة مهنة قانونية في مصر حتى العام 1949، حيث استمرت لعقود طويلة مهنة تتم مزاولتها في وضح النهار، وتحت حماية القانون، وظلت حكومات محمد علي تحصِّل منها الضرائب، منذ مطلع القرن التاسع عشر، وإلى العام 1837.

المماليك بإبطال الخمور وتعفية بيوت المسكرات، وهو يُورد من ذلك الكثير، لافتًا إلى أن حجم الخسائر التي مُنيت بها الإدارة المصرية - على سبيل المثال - في عهد بيبرس، حينما أبطل الخمر فقد كان "ضمانها" نحو ألف دينار في اليوم:

يقول المقريزي: "وفي خامس عشري شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة "هجرية" - أي نحو منتصف القرن الثالث عشر الميلادي - قريء بجامع مصر مكتوب بإبطال ما قرر على رسوم ولاية مصر من الرسوم وهي مائة ألف درهم مصرية، فبطل ذلك، وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها سنة خمس وستين وسمائة "هجرية"، وأمر بإراقة الخمور وإبطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الخانات والخواطي بجميع أقطار مملكة مصر والشام فطهرت من ذلك البقاع، ولما وردت المراسيم..، قال الأديب الفاضل أبوالحسين الجزار:

قد عطل الكوب من حبابه وأخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكي على الذي فات من شبابه"

وفي موضع آخر يقول المقريزي في الفترة نفسها:

"وفي تاسع جمادى الآخرة سنة ست وستين وستمائة، أمر الملك الظاهر بيبرس بإراقة الخمور وإبطال الفساد ومنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء من جميع القاهرة ومصر وسائر الأعمال المصرية، فتطهرت أرض مصر من هذا المنكر ونهبت الخانات التي كانت معدة لذلك، وسلب أهلها جميع ما كان لهم ونفي بعضهم وحبست النساء حتى يتزوجن وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك وحط المال المقرر على البغايا من الديوان وعوَّض الحاشية من جهات حلّ بنظيره. وفي سابع عشر ذي

الحجة سنة تسع وستين وستمائة أريقت الخمور وأبطل ضمانها، وكان كل يوم ألف دينار، وكتب توقيع بذلك قريء على المنابر، وافتتح سنة سبعين بإراقة الخمور والتشدد في إزالة المنكرات وكان يومًا مشهودًا بالقاهرة . وبلغه في سنة أربع وسبعين عن الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز وكان قد تمكن منه تمكنًا كثيرًا أنه يشرب الخمر فشنقه تحت قلعة الجبل".

ونحن نستطيع أن نفهم عدة أمور مهمة من كلام المقريزي، عن واقعة جرت قبيل ميلاده بنحو قرن من الزمان، أولها أن الظاهر بيبرس (1223 ـ 1277) كان يعاود كل فترة الهجوم على الخمور في محاولة منه لإبطالها، لكنها في الغالب لم تكن محاولات قابلة للنجاح أبدًا، فقد كانت الناس الراغبة في ممارسة حرياتها، سرعان ما تعود سيرتها الأولى إلى تناول الخمور من جديد، وثانيها أن قطاعًا واسعًا من المصريين كان يتضرر من هذا القرار، بدليل أن البيتين الذين أوردهما المقريزي هما بمثابة قصيدة كُتبت حسرةً على انقطاع الخمور، لدرجة أن الشيخ ـ ومعه ولا شك قطاع عريض وراءه ـ يبكي على الذي فات من شبابه، بعد منع الخمور.

ومثلما يلتفت المقريزي إلى سُكْر العامة وطرائقهم في اقتناص لحظات المتعة، يشير كذلك إلى سُكْر الملوك والسلاطين، ويروي عن "توران شاه"، نجل الصالح نجم الدين أيوب شغفه بالخمور، يقول المقريزي في "المواعظ والاعتبار": "كان إذا سَكِر في الليل جَمَع ما بين يديه من الشمع، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تتقطع ويقول: "هكذا أفعل بالبحرية" ـ يقصد المماليك البحرية.

في كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك"، يقترب المقريزي من حالات غير معروفة لبعض السلاطين السكيرة في تاريخ مصر، ومنهم ثاني ملوك الجراكسة في مصر "السلطان زين الدين أبوالسعادات"، والذي اعتاد أن يجلس لشرب الخمر مع عدد من خاصكيته، لكنه في عام 808 هجرية، حيث تعرض ذات مرة لمحاولة اغتيال أثناء السُّكْر، وكاد أن يفقد حياته، حيث تناول الخمر في "عيد النيروز"، ثم اختفى عن الأنظار:

"في يوم السبت رابع عشرين ربيع الأول هذا، فجلس السلطان مع عدة من خاصكيته لمعاقرة الخمر، ثم ألقى نفسه في بحره ماء وقد ثمل، فتبعه جماعة وألقوا أنفسهم معه في الماء، وسبح بهم في البحرة، وقد ألقى السلطان عنه جلباب الوقار، وساواهم في الدعابة والمجون، فتناوله من بينهم شخص، وغمه في الماء مرارًا، كأنه يمازحه ويلاعبه، وإنما يريد أن يأتي على نفسه.."

بوَظ ومحاشِش

هكذا استمر العرب حكامًا ومحكومين يسكرون - على الأقل - في خمارات عرفتها المدن الكبرى لمصر والشام والمغرب العربي، طوال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين، ولكي نكون جاهزين للانتقال إلى عصر جديد من الخمور، هي خمور الحملة الفرنسية على مصر، أردنا التوقف قليلًا عند النصف الثاني من القرن السابع عشر، قبل نصف قرن من دخول بونابرت وجنده، فقد جاء حديث الخمور في واحد من أكثر كتب التأريخ المصري تحفظًا ومن أكثر مدوناته تمسكًا

بالأخلاق وتحسسًا لأخطارها أقصد كتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، تأليف عبدالرحمن الجبرتي (1753 ـ 1822) الذي لم تمنعه ثقافته الأزهرية المتحفظة من سرد وقائع تاريخية مدهشة تكشف إلى أي حد كانت ثقافة تناول الخمور في مصر منتشرة، خلال عقود النصف الثاني من القرن الثامن عشر، لا في قصور الحكام والمسؤولين الأجانب فقط، بل بين عناصر الصف الثاني والثالث من الأمراء المماليك على سبيل المثال، الأمر الذي يجعلنا نقف منبهرين أمام هذا النموذج الذي يحكي عنه الجبرتي، كونه يضم أفرادًا مسلمين يتفقون في لحظة سُكْر على قتل أعدائهم ـ منافسيهم على السلطة ـ ثم يقرأون الفاتحة على ذلك.[48]

يقول الجبرتي تعليقًا على أحداث يوم 27 أغسطس سنة 1726، جاءت رواية اتفاق علي بيك المعروف بـ "أبي العذب"، مع مجموعة من الأمراء على قتل أعدائهم، خلال جلسة سُكر، بدا أنها تُعقد كل ليلة، في بيت واحد منهم، يقول الجبرتي: "كانوا يجتمعون في كل ليلة عند واحد منهم، يعملون حظًا، ويشربون شرابًا" يقول الجبرتي، إنهم لما أخذ الشراب عقولهم، قرروا قتل أعدائهم.. و"قرأوا الفاتحة على ذلك"!!..

في مقام آخر يرشدنا الجبرتي، إلى وجود "الخمامير" في مصر، خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، وتحديدًا بعد تعيين عبدالله باشا الكبورلي، عام 1730، الذي وصفه الجبرتي بأنه "كان إنسانًا خيِّرًا صالحًا منقادًا للشريعة، أبطل المنكرات والخمامير، ومواقف الخواطي، و(البوظ) من بولاق وطولون ومصر القديمة"، ما يعني أنه كانت هناك

48 ـ "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، تأليف عبدالرحمن الجبرتي.

"بوظ" -جمع "بوظة"- وأن هذا الكبورلي أبطلها في بعض الأماكن.

يرشدنا الجبرتي أيضًا - من دون أن يقصد - أن العام 1743 شهد إغلاق بعض "المَحاشِش"، في ظل إصدار الوالي الجديد محمد باشا اليدكشي، فرمانًا أبطل فيه شرب الدخان، في الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت ونزل الأغا والوالي، فنادوا بذلك، وشددوا في الإنكار والنكال بمَن يفعل ذلك من عالٍ أو من دون، وصار الأغا يشق البلد في التبديل كل يوم ثلاث مرات، وكل من رأى في يده آلة الدخان عاقبه، وربما أطعمه الحجر الذي يوضع فيه الدخان بالنار وكذلك الوالي".

علينا أن نتخيل تلك الحالة الوجدانية التي وصلت إليها مدينة يعيش أهلها حرياتهم من خيراتهم، بينما يصدر فيها الوالي الغريب أمرًا كهذا، علينا أن نتأمل تلك المسافة الثقافية الشاسعة بين أهل البلد الأصليين وحكامهم المستعمِرين، ثم نحاول أن نفهم فرمانًا يبطل شرب الدخان "الحشيش"، في الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت، وكأن الأمر انتشر انتشارًا مخيفًا جعل الوالي لا يُصدق ما يراه من أمر هؤلاء الناس، الذين هم سكان القاهرة قبل ثلاثة قرون، بينما هو مستعمِر غريب قادم في خدمة السلطان العثماني.

الفصل السابع

بار المشهد الحسيني

(..وفيه ظهر أن مراد بيك رجع ثانيًا إلى الصعيد، وشاع الخبر أيضًا أن عثمان بيك الشرقاوي وسليمان أغا الوالي وآخرين مروا من خلف الجبل، وذهبوا إلى ناحية الشرق، فخرج إليهم جماعة من العسكر، وبرطلمين ويني الخمار النصراني الرومي. الذي كان في أول أمره مستوليًّا على خمارات مصر، ثم صار عسكريًا)..

عبدالرحمن الجبرتي ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس

لم يعد من الصعب الإجابة على سؤال: أين ومتى بدأت البارات تعمل في مصر.. في ضوء ما يُمكن أن نعثرَ عليه من معلومات وأدلَّة من المصادر التاريخية المعروفة؟

الحقيقة أننا لم نجد ذكرًا لفكرة البار بالمعنى الأوروبي، في مصر قبل دخول الحملة الفرنسية إلى القاهرة، منتصف يونيو العام 1798، وهذا أمر طبيعي تمامًا، فلم تكن مصر تعرف حتى هذا التاريخ من المشارب، سوى "المقاهي العربية"، و"المحال التي تبيع البوظة"، وما كان يطلق عليه "الخمارات"، أو "الخمامير"، ومثلما يعرف الجميع، فقد ظلت مصر لفترة طويلة من القرن الثامن عشر، بعيدة عن التحديث، وممزقة بين سلطة الباب العالي وسلطات المماليك، الذين كانوا يمسكون زمام الحكم على الأرض في مصر، إلى أن دخلت جيوش نابليون بونابرت، فأفقدتهم صوابهم واضطرت كثيرين منهم إلى الفرار.

لقد كانت مصر في هذه اللحظة بعيدة عن كل تحديث في بنيتيها الفوقية والتحتية، لأسباب لا مجال لذكرها الآن، إلا أن الحملة الفرنسية التي أعلنت أنها تريد أن تضع مصر على خريطة العالم الحديث، فشلت فشلًا ذريعًا في تلك المهمة، على خلفية صراعها التاريخي مع إنجلترا وبقية القوى الأوربية من ناحية، وسطوة السلطنة العثمانية الروحية على المصريين من ناحية أخرى، حيث كان الباب العالي لا يُريد أن يترك مصر للفرنسيين حتى لا يخسر ما يدفعه له أهل مصر من حبوب وغلال، فضلًا عن عدم استعداد المصريين لهذه الخطوة المتقدمة - أقصد خطوة التحديث - بسبب تخلف علاقات الإنتاج وأنماطه، ما أدى

إلى فشل فرنسا في مهمة تحديث مصر، في هذه المحاولة المُتعجِّلة، التي لم تستغرق سوى ثلاثة أعوام، بينما احتاج محمد علي باشا في محاولته لتحديثها نحو أربعين عامًا، في معظم التقديرات.

فشلت الحملة في تحديث مصر، نعم، لكنها نجحت في وضع علامات لا تُنسى على طريق هذا التحديث، فبالإضافة إلى إنشائها "المجمع العلمي"، وتقديم أهم رؤية مسحية ومعرفية عن مصر في كتاب "وصف مصر"، وسَّعت الحملة شوارع القاهرة، وأعادت تقسيمها، واتخذت عدة قرارات تسهل مرور حركة قواتها على أرض العاصمة وفي الأقاليم، وتهيئ مناخًا ملائمًا لضباطها وجنودها، حيث حلم بعض قادة الحملة الفرنسية بالبقاء لأطول وقت ممكن في مصر، وتحويل القاهرة إلى باريس صغيرة في الشرق، وفضَّل بعضهم الاستقرار فيها، فقد كانت مصر في النهاية المستعمرة الفرنسية الكبرى في الشرق، وكان كل ذلك يعني ضرورة افتتاح بار أوروبي أو أكثر على أرضها، يمكن أن يكون مكانًا لاحتضان اللقاءات الطويلة بين الفرنسيين ومن مال إليهم من المصريين.

كل ما أريد أن قوله إن علينا رصد اللحظة "المزاجية" الخاصة جدًا، التي ولد فيها أول بار "أوروبي" تعرفه القاهرة - التي كان لديها في ذلك الوقت ملتزم بالخمامير يحصل ويدفع عنها الضريبة - بقرار من حكومة الاحتلال الفرنسي، التي كان المصريون انفجروا غضبًا ضدها في ثورتين كبيرتين - الأولى 20 أكتوبر 1798 والثانية 20 مارس -1800 وهما الثورتان اللتان شاركت فيهما طوائف الشعب، ونجحت القوات الفرنسية في قمعها بقوة السلاح، وإن كانت فشلت في القضاء على الغليان في الشارع، الذي كان وقتها ينتظر بفارغ الصبر، اللحظة

التي تخرج فيها قوات القائد العسكري الفرنسي، "نابليون بونابرت" (1769ـ 1821)، من أرضه، وبعد سبعة أشهر من أحداث الثورة الثانية، فاجأ قائد جيوش الحملة "جاك فرانسوا مينو" المصريين بقرار - غير مألوف بالنسبة لهم - يمنع تناول المخدرات أو استخدام الحشيش، أو "نبات القُنَّب الهندي"، في المقاهي أو في الأماكن العامة، وهو القرار التمهيدي الذي سوف تتلوه قرارات أخرى تمهّد لخطوة افتتاح أول بار أوربي في مصر، في محاولة لإجبار المصريين على ترك "الحشيش"، والاتجاه إلى تناول الخمور، التي عملت السلطات الفرنسية على توسيع إنتاجها محليًا، في الوقت الذي جرّمت فيه تدخين الحشيش.

يقول المؤرخ الفرنسي جان جاك لوتي، في كتابه "نظرة على مصر في زمن بونابرت"، إن المرة الأولى التي يصدر فيها قرار بمنع شرب الحشيش في مصر، كانت في شهر أكتوبر عام 1800، حيث أصدر "الجنرال مينو"، قائد جيوش الحملة الفرنسية عدة قرارات تنظيمية، حيث منع استخدام الحشيش، تقول المادة الأولى، من القرار الصادر في 17 فيندمبير، من العام التاسع للجمهورية (9 أكتوبر سنة 1800): "يمنع استخدام المشروب المُسكر الذي يصنعه بعض المسلمين، مستخدمين نوعًا من الأعشاب اسمه "الحشيش"، ويمنع كذلك تدخين حبوب نبات القُنَّب".

إلى هذا الحد كانت العوام "تفضل تدخين الحشيش في جميع المقاهي"، يعلق لوتي في الهامش قائلًا: "نبات القُنَّب كان يُزرع بصفته مخدرًا، وليس لجودة الألياف التي تستخرج منه، ويفضل العوام تدخينه في جميع المقاهي، ومما هو جدير بالذكر، أن تدخين الحشيش لم يكن محظورًا قبل سنة 1800 ميلادية في مصر".

ويفند لوتي بتلذذ مزايا الحريات التي تسمح بتدخين الحشيش وتناول الأفيون، مشيرًا إلى أن القهاوي تقدم الحشيش للزبائن، حسب الطلب في أرجيلات يعدونها لهم، ويضيف: "يمنح تدخين الحشيش إحساسًا بنشوة عابرة، يليها شعور بالبلادة والخمول، وعلى سبيل التسلية، يمضغ الناس حبوب الخشخاش وغيرها من الحبوب التي يُستحلب زيتها".

هكذا يُقدر لوتي أعداد مدخني الحشيش في مصر، زمن الحملة الفرنسية، بقدر كبير من المبالغة، يقول :"ويذكر أحد الشهود أن ثلثي الحرفيين يتعاطون المخدرات في المقاهي، بينما يتعاطاها الثلث الباقي في المنازل"، مضيفًا أن بعض المقاهي كانت تقدم الحشيش والأفيون لزبائنها، مع نوع من المعجون المخلوط بالزيت، لافتًا إلى أن الزبائن الأكثر فقرًا كانوا يتعاطون هذه المخدرات التي ينكرها الدين، وإن كان القانون يسمح بها، ويضيف : "تُلقي السلطة القبض على "المساطيل" وتعاقبهم عندما يثيرون ضجة تقلق الجيران، أما مَن لا يثيرون أي ازعاج، فإنهم يُسلُّون الناس بـ "سُطلهم الوقتي".

والحق أن اهتمام المصريين بالحشيش على حساب الخمور، شغل بال الكثير من المهتمين بالوجدان الشعبي، ومنهم أحمد تيمور، لدرجة أن صاحب "معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية"، يخصص لمفردة "حشيش"، أكثر من عشرة صفحات، مفرقًا بين البلدي"، الذي يُزرع في مصر والمستورد "الكافوري"، معتبرًا أن بداية ظهور الحشيشة كان في المائة السادسة وأول السابعة، راويًا قصة عالم يدعى أحمد بن إبراهيم بن أحمد حصل له اختلاط من أكل الحشيش ومات سنة 710 "هجرية"، ويبدو أن صاحب الكتاب أراد أن يعلمنا طريقة صنع الحشيش بمنتهى الدقة والإحكام، فكتب في هذه الفقرة كلامًا كثيرًا

مدهشًا يستحق الالتفات إليه وتفهمه، ربما أدركنا جانبًا مهمًا من جوانب الوجدان المصري:

"إذا بلغ الحشيش أوان الحصاد كان له ثمر ذو أوراق متضامنة، طبقة فوق طبقة، شبه ثمر الخرشف. يكون بينها غبار دقيق مائل للحمرة، به لزوجة قليلة يسمونه عندهم بالغبار أيضًا فيخرجون لجنيه قبل شروق الشمس، ويجمعونه وعليه الندى، خوفًا على ذلك الغبار من أن يجف فيتطاير، ثم يضعونه في حجرة مقفلة المنافذ، مكسوَّة الأرض والسماء والحيطان بالورق، أو بنسيج جديد من النوع المسمى بالبفتة، ولا يبدأون في كسره إلا بعد أن تعلو الشمس، ويجف ما عليه من الندى. وليس للعيدان فائدة عندهم، فيلقونها ويقتصرون على الثمار، فيتطاير منها الغبار وقت تهشيمها، ويلتصق بالأرض والحيطان والسقف. فيعمدون إلى الريش أو نحوه فيجمعونه به، ويجعلونه في أكياس، وهذا هو المسمى عندهم بـ الأوّلي أو الحمرا أو "تراب الكَسر، وهو أعلى صنف من الحشيش وأغلاه، ثم يعمدون إلى هشيم الثمار، فينخلونه في غربال واسع الثقوب يسنى الدِّيارة، ثم ينقلون ما تجمع إلى منخل، أضيق، ولا يزالون ينقلونه في المناخل، حتى يتحصلون منه على غبار آخر أقل جودة من الأول. ثم يعيدون الكرة على ما بقي من الهشيم، فيفعلون به كذلك ويخرجون منه غبارًا أقل من الصنفين المذكورين".

يفيض تيمور في طرق استعمال الحشيش[49]، وعادات الحشاشين

49 ـ يشير تيمور إلى انتشار ثقافة الحشيش في مصر بشكل مبهر، لافتًا إلى بعض الأطعمة التي يدخل فيها الحشيش أو أحد مكوناته، ومنها "عمل الدُهنة"، قائلًا: "يستخرجون الدُهنة مما بقي من هشيم ثمار الحشيش، بعد نفض الغبار وحفظه كما تقدم شرحه، فيرسمون هذا الهشيم بالأيدي، ثم ينخلونه في مناخل واسعة الثقوب، فيخرج منه شيء خشن يلقونه في السمن، حتى يمتزج به، ويخضر لونه فيصفونه، ويسمون هذا السمن الممزوج بالدهنة، وهي التي يصنعون منها البَرش..".

من تشحيط ومخاردة، يقول:

"ومن عاداتهم في التدخين المخاردة، وهي أن يشترك اثنان في ثمن تعميرة واحدة يدخنانها معًا إذا لم يقو الواحد على ثمنها". ويضيف أيضًا: "ومن عاداتهم أيضًا التشحيط، ولا يشحِّط إلا المبتلون بهذه الآفة من الفقراء المعدمين، فيظلون ليلهم أو نهارهم في قهاوي الحشيش، ينتظرون فراغ المدخنين، ليدخنوا ما بقي في قصابهم، وربما نام بعضهم فيوقظه غلام القهوة، ويدني من فمه القبصبة فيقول: شحّط فيشحّط، يفعل ذلك رأفة به إن أراد".

وينتقل إلى تسمية الحشيش بالكَلَس يقول: "في المعرب والدخيل للمدني: الكَلَس بفتح الكاف واللام: الحشيشة المعروفة، عامية شامية مبتذلة. ومن لطائف محمد ماماي بن أحمد الرومي الدمشقي قوله:

قل لمن كان للشراب محبّـًا ولساقي الكؤوس بات يملِّس
لم تجِد طاقة لحـــدة خمرٍ سُد باب المدام عنك وكَلـس

وإلى اليوم، لم نتأكد بعد من صحة العبارة التى نُسبت إلى القائد العسكرى الفرنسي، نابليون بونابرت ـ الذى حاول خداع المصريين، بادعاء الدخول فى الإسلام، فأطلق عليه العامة تندرًا لقب: "علي بونابرت" ـ تلك العبارة التى أبدى فيها اندهاشًا بالغًا من طبيعة الشعب المصري المزاجية غير المألوفة، حين قام بثورة القاهرة الأولى، ضد الحملة الفرنسية، فجأة ومن دون أية مقدمات، ساعتها نُسب إلى بونابرت قوله: (ثورة كهذه كبيرة فى حجمها وفى قوة اندفاعها وفى مثابرتها... أتت من شعب يكثر من شرب القهوة وتدخين الحشيش ويتشاجر بالسباب لا بالأيدي.. شعب فَرِح متسامح، سلاحه النكتة وغذاؤه الفول، وثيابه ملونة

واسعة.. وحكمته: اضرب الدنيا طبنجة".

مشروب "الجَمَل" الرهيب

الشاهد أن القاهرة، ظلت حتى مطلع القرن التاسع عشر، لا تعرف - وفق أغلب المصادر التاريخية - سوى نوعين اثنين من أماكن الترفيه "المشارب":

أولها: "المقهى العربي"، حيث الجلوس على الدكك، وهو المقهى الذي لا يُقدم الكحوليات، بينما كان يُقدم المشروبات الساخنة والدخان، وكثير منها كان يقدم المشروب المُسكر، الذي كان "يصنعه بعض المسلمين بغلي بذور الحشيش غليًا شديدًا ويُشرب المنقوع"، كما أن أغلبها كان يعرف تدخين حبوب "نبات القُنَّب".

ثانيها: الخمارات أو "البوظ"[50]

على أن السلطة الفرنسية في القاهرة ارتأت على ما يبدو منذ الأيام الأولى لوصولها ضرورة تنظيم شرب الخمور في مصر، فقد وجدوا الخمور تباع وتُحْتَسى، ووجدوا مصانع لتقطيرها، ووفق "لوتي" كان أقباط الفيوم يصنعون نوعًا فاخرًا من النبيذ، لكنه للأسف لا يمكن الاحتفاظ به مدة طويلة، كما كان المصريون يصنعون أيام الحملة الفرنسية خمورًا من: الزبيب والتين والجميز والبلح والتين الشوكي، ويضيف لوتي: "حاول الفرنسيون صناعة النبيذ في القاهرة، لكن

50 ـ "بوظ" جمع بوظة وهو مشروب شعبي قديم، يكاد يكون اختفى في مصر خلال العقد الأخير من القرن العشرين، وكان يتم تحضيره بتخمير الشعير، وتحدث عنه جمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي بالقاهرة سنة (1410 - 1470) ميلادية، في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وعرفها أحمد أمين في "قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية".

الاضطرابات أوقفت التجربة".

والأهم من كل ذلك، أنه في اللحظة التي دخل فيها نابليون بجيوشه أرض مصر كان ملتزم ضرائب الخمامير مواطن مسيحي مصري يدعى "يني الخمار"[51]، وخلال سنوات الحملة الثلاث، وقد ورد ذكره في كتاب الجبرتي "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"، وفي مذكرات نيقولا ترك، وفي لحظة دخول جيوش الفرنسيين، كانت محاولت لبيع الخمور بالقطاعي بأعداد كبيرة في حي "باب اللوق" - الذي كان مخصصًا وقتها للبغاء - ويضيف لوتي: "وبالإضافة إلى بيع الخمور و"العَرَقي"، كان الزبون يستطيع شرب "الجَمَل"، وهو مزيجٌ رهيب من الخمر والحشيش".

في كتابه "مصر تحت حكم بونابرت غزو الشرق الأوسط"، قال أستاذ التاريخ في جامعة "ميتشجان" جوان كول، إن المؤرخين يجمعون على أن معظم جنود "جيش الشرق" الفرنسي قد حلوا في مدينة "رشيد" المصرية، في طريقهم إلى القاهرة في مشهد استعماري وحشي، لكننا نرى فيه دليلًا قويًّا على وجود الخمور في المدن المصرية الغنية:

"لقد انقضوا بشراهة يملأون البطون من الأطعمة والأشربة التي تقدمها مدينة اشتهرت بثرائها، فمن مياه نقية وزبيب وتمر إلى شيء من النبيذ الرديء، الذي يبيعه يهود المدينة، حسبما يروي "مواريه".

وبسبب كل ذلك، كان إنتـاج الخمور في مصر بحـاجة إلى قوانين وتشريعات تنظمه، في ظل احتـياج الحمـلة إلى هذا البند "الضروري"

51 ـ "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس".. كما أن ذكر يني الخمار تكرر أيضًا في مذكرات نيقولا ترك، ووصفه بيني "الكومضا"، مشددًا على أنه رحل مع الحملة الفرنسية.

من بنود الترفيه، إلى درجة أصبح فيها بعض الفرنسيين يملكون الخمامير، وفق ما جاء في قانون أصدرته الحملة بعد قليل من وصولها لتنظيم عمل الخمامير وفرض الغرامة على المخالفين من أصحاب هذه الخمامير، ضمن مجموعة القوانين في حوادث جمادى الأول (1213هـ ـ 1798م)، ومما نقله الجبرتي عن نص القانون قوله:

"يتحتَّم ويلزم كل صاحب خمَّارة أو وكالة أو بيت يدخل في محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو إقليم أن يعرف عنه حالًا حاكم البلد، ولا يتأخر عن الإخبار إلا مدة أربعة وعشرين ساعة يعرفه عن مكانه الذي قدم منه، وعن مدة سفره ومن أي طائفة أو ضيفًا أو تاجرًا أو زائرًا أو غريمًا مخاصمًا،... وقد فُرضت غرامة علي معاشر الرعايا وأرباب الخمامير والوكائل عشرين ريالًا فرانسة في المرة الأولى، وأما في المرة الثانية فإن الغرامة تضاعف ثلاث مرات، وأخبروا هؤلاء أن الأمر بهذه الأحكام مشترك بينهم وبين الفرنسيس الفاتحين للخمامير والبيوت والوكائل".

والحق أن نابليون لم يكن يريد - كأي مستعمِر- سوى أن يغتنم خيرات هذا البلد في الوقت المناسب، ففي حين رفع شعارات برَّاقة عن العدل والحرية والمساواة، مدعيًا أنه يقود مصر على طريق التحديث، إلا أن قواته لم تتوقف عن ممارسة القتل، خصوصًا أمام أي بادرة للعصيان أو التمرد، كما أنه اتخذ قرارات إدارية، اعتبرت عودة غير متوقعة إلى النظم العثمانية البائدة، حيث تم تأجير التزام جمرك العاصمة، كما تم تأجير جمارك السويس بالمزاد العلني و"تم تأجير الاحتكار الحكومي لصناعة الخمر المقطرة"، وهو القرار الذي عاد مينو في 20 يناير 1801، وألغاه.

لقد كانت قرارات مينو - من وجهة نظر كثير من باحثي التاريخ - أقرب إلى قرارات رجل الدولة، وسط مجموعة من رجال الحرب، وقد أبدى نشاطًا مكثفًا أثناء ولايته، فأصدر القرارات التي تعيد تنظيم كل شيء (المالية، والقضاء، والزراعة، والضرائب، والصحة العامة، ورقابة النقل، وتدريس التشريح، ومنع الجنود من تناول الخمر، وتحريم الحشيش على المصريين، وإلغاء الديَّة، ومطاردة المرتشين وهكذا.

ووفقًا لما يمكن فهمه من كتب التاريخ، فإن الفرنسيين لم يشرعوا في التفكير في تأسيس بارات على الطراز الأوربي، إلا بعد أن حاولوا التعاطي مع الخمارات - بالمعنى الشعبي المصري - المتاحة في بعض مناطق القاهرة، مثل بولاق، فلما لم تمتعهم المقاهي الشعبية و"الخمارات" بطريقتها المصرية، كان لابد من تتأسس البارات الأروبية، حيث كان الشغف الفرنسي بوجود بار في مصر كبيرًا جدًا، لدرجة أن الجبرتي ينقل بيتين شعريين للشيخ حسن العطار، أحد أهم أدباء ذلك العصر، والذي تولى مشيخة الأزهر فيما بعد، يعكسان هذا الشغف، قال فيهما:

"إن الفرنسيين قد ضاعت دراهِمُهم في مصرنا بين حمَّار وخمَّار
وعن قريبٍ لهم في الشام مَهلـــكةُ يضيع لهم فيها آجال وأعمار"

خمرة بونابرت .. وإسلامه

لقد كان من الطبيعي أن تثير قرارات قادة الحملة حفيظة رجال الدين المصريين، الذين كانوا في ورطة كبيرة، لا يستطيعون فيها ممالأة قادة

الحملة بخصوص شراهتهم إلى الخمر، وفي الوقت نفسه لا يمكنهم معارضة السلطة النافذة والقوية لجيش الشرق، ووفق ما نقله الرحالة التركي نيقولا ترك في مذكراته[52]، فإن الفرنسيين شاركوا في تغيير الصورة النمطية للأخلاق في المجتمع المصري، وكانت الخمور ضمن سلوكياتهم اليومية، التي أثارت الغضب المتزايد بين العامة في القاهرة تجاه تلك الممارسات التي رأوا فيها خروجًا على التقاليد، وأضاف ترك: "إن الفرنسيين اصطحبوا النساء والفتيات المسلمات وهن سافرات في شوارع القاهرة، وشاع بين الناس أن الجنود الفرنسيين يشترون النبيذ ويشربونه، بل إن زينب ابنة الشيخ سيد خليل البكري، ذات الستة عشر ربيعًا كشفت عن وجهها وبدأت تخرج مع الضباط الفرنسيين".

الباحث الأمريكي جوان كول وضع أيدينا أيضًا على هذه اللحظة التي ظهر فيها التناقض بين أفكار المستعمر وأفكار رجال الأزهر. فقد كشف عن تفاصيل جديدة تتعلق بموقف رجال الدين المصريين في الأزهر، من شرب الجنود الفرنسيين للخمور، لافتًا إلى أن الشيخ البكري، وقد كان في مكانة دينية رفيعة "نقيب الأشراف" قدم زجاجة نبيذ فاخرة إلى قادة الحملة الفرنسية، خلال احتفالات المولد النبوي الشريف، ما يعني أن رجال الدين المصريين كانوا قادرين على الانتصار على الأعراف الاجتماعية الخاصة بإكرام الضيف، حتى على حساب قناعاتهم الدينية، ونحن لا نقول إن نقيب الأشراف تناول النبيذ مع الفرنسيين، بل إنه فقط قدمها لهم في بيته وعلى مائدته، وهذا في ظني يكفي، خصوصًا أن

52 ـ "أخبار المشيخة الفرنساوية في الديار المصرية" مذكرات نقولا ترك ـ تركي من أسرة يونانية زار مصر وأقام بها ـ تتناول فترة الحملة الفرنسية على مصر وبداية حكم محمد علي، عُثر عليها مخطوطة فى مكتبة الملك فاروق الخاصة.

موقف رجال الأزهر من الخمور انعكس على رفضهم المطلق الموافقة على تحوُّل بونابرت إلى الإسلام في ظل استمراره في شرب الخمر.

يقول الباحث الأمريكي: "وفي تلك الليلة - أي في ليلة المولد النبوي الشريف - أقام الشيخ خليل البكري - نقيب الأشراف - حفلًا عظيمًا لـ "بونابرت" في بيته، حيث اجتمع مائة من كبار شيوخ الأزهر، وقد افترشوا الأرض حول عشرين منضدة منخفضة، وشرع واحد منهم برواية سيرة النبي بنغمة وجدها الفرنسيون مملة، أعدت للفرنسيين موائد وقدمت لهم أدوات مائدة، وصِحافًا فضية بل وقنينة نبيذ مُعتَّق، ثم مدت الموائد بالمشويات والمقبلات".

على أن القائد العسكري بونابرت اصطدم بحائط تحريم الخمر، حينما أراد أن يعلن إسلامه شكليًّا أمام شيوخ الأزهر ورجال الدين المصريين، وحينما دعاه الشيخ الشرقاوي[53]، إلى الدخول في الإسلام، رد بونابرت حسب جوان كول - مستعينًا بروايات ومذكرات جنود وقادة الحملة - قائلًا: "إن هناك عقبتين تحولان دون تحوله وجنوده إلى الإسلام، الأولى الختان والثانية الخمر"، ولفت القائد الفرنسي إلى أن أربعة من فقهاء المسلمين أصدروا فتوى بعد شهر، أسقطوا فيها شرط الختان، وأضاف بونابرت:

"إذ إنه حسب قولهم ليس فرضًا إسلاميًّا، كما أضاف أنهم أفتوا أيضًا أن شاربي الخمر من غير المسلمين يجوز أن يصبحوا مسلمين، غير أن مصيرهم سيكون جهنم إذا واصلوا شربها بعد إسلامهم"، وقد أعلن

53 ـ هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي (1737 ـ 1812) ميلادية، أحد مشايخ الأزهر الشريف في القرن الثالث عشر الهجري، ولد بقرية الطويلة من قرى الشرقية، وتولى مشيخته عام 1208 هـ

القائد الأعلى عن سعادته لتخطي العقبة الأولى، ولكنه أبدى انزعاجًا لما جاء بالفتوى بشأن شرب الخمر، فلم يرَ فيها ما يشجع على اعتناق الإسلام، وقد رأى الشيخ المهدي أن يعلن الجزء الأول من الفتوى على أي حال، لما سيتركه من أثر طيب بين المصريين، ويضيف أن شيوخ الأزهر عادوا إلى مناقشة الأمر الثاني - شرب الخمر- وأرسلوا المكاتبات إلى زملائهم بمكة، وأخيرًا اتفق العلماء حول جواز شرب الخمر لمَن تحول من دينه إلى دين الإسلام، شريطة أن يعاقب بغرامة يدفعها. وتحيط الشكوك برواية بونابرت، وعلى الرغم من أن الفتوى الثانية قصد بها أن تحل المشكلة، فإن الموضوع برمته أسقط منذ ذلك الحين، ومن الواضح أن بونابرت لم يوفق في إقناع شيوخ الأزهر بمنحه إعلانًا شكليًّا يفيد تحوله للإسلام".

الفصل الثامن

مزاج الباشا

(والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء، وفي الغالب خصوصًا لأكابر الناس، يشرب من النبيذ قدرًا لا يسكر به أبدًا، فإن السُّكْر عندهم من العيوب والرذائل. وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيئًا يسيرًا من "العرقي" ـ نوع من الخمر ـ ثم إنهم مع شربهم لهذه الخمور لا يتغزلون بها كثيرًا في أشعارهم، وليس لهم أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلًا، فهم يتلذذون بالذات والصفات ولا يتخيلون في ذلك معاني ولا تشبيهات ولا مبالغات)

رفاعة الطهطاوي ـ "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"

على الرغم من كل هذه الخمامير التي عرفتها القاهرة، قبيل دخول الحملة الفرنسية بقرون طويلة وبغض النظر عن تسامح السلطان العثماني ووكلائه المماليك وولاته، على مدار القرنين السادس والسابع عشر -بدرجات متفاوتة - أو عدم تسامحهم، في تعاطي المصريين المسلمين الخمور، في أماكن معروفة، وبصرف النظر عن رغبة الفرنسيين في تقديم الخمور بأجود أنواعها على الطريقة الأوربية، لهؤلاء المصريين، الذين كانوا يتعاطون مخدر الحشيش بدرجة أكبر، كما تقول لنا كتب التاريخ، إلا أن النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عرف انفتاحًا مصريًّا غير مسبوق على الحريات العامة، ومنها حرية تناول الخمور، الأمر الذي انعكس على ثقافة الطبقات المتوسطة والفقيرة، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، على ما سنرى بعد قليل.

نقول، لقد سمحت موجات الضعف والتحلل الذي عانت منها دولة المماليك في مصر، خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، بظهور القدرات المصرية الخاصة في التخلص من نير الثقافة السائدة، وهي الثقافة الدينية التي كانت مصحوبة بالقوانين العثمانية الجائرة، التي جرَّمت الخمر -نظريًّا- على الفقراء فقط، ونحن نستطيع أن نلحظ هذا التغير الذي طرأ على العقل المصري المتحفظ الآن، مما يُروى عن شخصية شهيرة في كتب التاريخ المصري الحديث، مثل شخصية رضوان كتخدا الجلفي، المتوفى عام (1755) ميلادية، الذي كان شخصية مهمة في زمنه، أقام ما يشبه المحفل الثقافي الذي تمتع بقدر من الحرية وكانت توزع فيه الخمور، يقول المستشرق البريطاني ستانلي لين بول

في كتابه المهم "سيرة القاهرة": "ولقد كان رضوان الجلفي، عَلمًا بارزًا آخر من أعلام القرن الثامن عشر، فحينما كان يتولى السلطة هو ونائب آخر، يدعى "إبراهيم" -خلال فترة حكم المماليك - كانت البلاد تتمتع بسلام شامل، وكانت القاهرة في هذا الوقت بمثابة مرعى للغزلان أو جنة للحوريات، وكان سكانها يحتسون كؤوس الشراب واللذة حتى الثمالة، كما لو كان قد خفي عليهم أن يؤدوه يوم الحساب. وليس بغريب بعد ذلك أن يتغنى الشعراء في مدحه بقصائد مثل "الخمر الأرجوانية"، و"عطر الجنة".

وإذا كان تحفُظ الجبرتي المؤرخ لم يمنعه من سرد أحداث تتناول الخمور ومشاربها، إلا أن علماء الحملة الفرنسية، 1798 ميلادية، كان لهم رأي آخر، وقدموا لنا الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والإنتاجية لـ "صناعة" الخمور في مصر، مطلع القرن التاسع عشر، والمهن التي ارتبطت بها ارتباطًا لصيقًا، وبالإضافة إلى علماء الحملة، هناك كتاب "لمحة عامة إلى مصر" تأليف "كلوت بك"، طبيب محمد علي فيما بعد، وكلاهما أسهم في وصف مصر بدقة، الأول مطلع القرن التاسع عشر، والثاني إبان العقدين الأولين من حكم محمد علي.

ففي موسوعة "وصف مصر"، التي وضعها عدد من علماء الحملة الفرنسية، حديثٌ عن انتشار الشرب بين طوائف الشعب المصري، حتى لو كان هذا الذي يشربونه هو الحشيش أو الأفيون أو المشروبات الروحية المُسْكرة، يقول علماء الحملة في كتابهم الثمين "وصف مصر": "المصريون على العموم، يأكلون بنَهم بذور "الخَشْخاش"، وبذورًا أخرى يستحلبونها، يدخل في تركيبتها الأفيون بشكل رئيسي، حيث يلجأ الأثرياء لهذا المشروب الأخير للسُّكْر،.. وتحرِّم الشريعة الإسلامية

الخمور، ويراعي المسلمون المتمسكون بدينهم ذلك، أما الكبار والتجار والجنود، فيرتكبون هذه المعصية في الخفاء، ويصنع المصريون عديدًا من المشروبات الروحية وأحسنها وأجودها هو المشروب المصنوع من العنب المجفّف، أما ما يستخرج من التين والجميز والبلح وثمار التين الشوكي، فهي أدنى قيمة، ويُفرط الأقباط في تناول الخمور".

ومما دوَّنه علماء الحملة الفرنسية، في كتابهم يبدو أن المصريين كانوا خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، قد وجدوا الطريق إلى الابتعاد عن الثقافة الرسمية السائدة، التي تحرّم الخمور، حيث كشف علماء الحملة، أن عدد مصانع التقطير في القاهرة كان من 10 إلى 12 مصنعًا، وأن المصريين كانوا يعرفون أنواعًا مختلفة من المشروبات التي تُذهب العقل، منها المعجون والمخلوط والسائل و"المشموم"، الأمر الذي يشي بأن الوجدان المصري كان قد استقر في هذا الوقت على ضرورة الحصول على حقه في تناول المشروبات الروحية والخمور.

لقد رسم علماء الحملة في كتاب "وصف مصر"، صورةً واضحة لمهنة "المُقطر"، العنصر الرئيسي في إنتاج الخل والخمور، قبل ثلاثة قرون، وتحديد أماكن صناعة النبيذ في مصر، محاولين تحديد النسبة الكبيرة من المصريين الذين يسكرون، سواء داخل أو خارج بيوتهم وفي مواجهة "التحريم"، كما وصفوا طريقة تعامل السلطات مع السكارى وهذيانهم، يقول علماء الحملة: "ثمة كثير من المقاهي يُباع فيها الأفيون، وهو نوعٌ من المعجون المخلوط بالأعشاب، وتتخذ الطبقة الدنيا، من هذه العقاقير وسيلة للسُّكْر والانتشاء، ويعتاد عليها ثلثا الحرفيين، وكذا الأمر بالنسبة للفئات الأخرى، وهم يسكرون داخل بيوتهم على الرغم من أن الدين يُحرم ذلك، ويعتقل البوليس ويعاقب السكارى، الذين يكون

هذيانهم بالغ الصخب، وفيما عدا ذلك لا يضايقهم أحد".

فصَّل الكتاب - المشهود له بالدقة - طرق صناعة النبيذ، في مصر، كاشفًا عن استخفافه بالمستوى المحلي القاصر لصناعة الخمور في مصر، مشيرًا إلى نبيذ الفيوم ونبيذ إقليم المريوطية، مُلمِّحًا إلى جودة أعناب مصر، والأرض الصالحة لزراعة الكروم بها، يقول "وصف مصر": "لعل الفيوم هي الولاية الوحيدة التي يصنَّع فيها النبيذ، وفوق ذلك فهو يصنَّع هناك بطريقة قاصرة، فبعد أن يُهرس العنب لمدة ساعة، في إناء فخاري، أسطواني الشكل، يوضع في جوال كبير، مصنوع من قماش صوفي بالغ السُّمك، ثم يعتصر الجوال بشدة، ويستقبل عصير العنب، الذي يسيل من الجوال، على هذا النحو، في إناء فخاري شبيه بالإناء الأول، لتتم فيه عملية التخمير، التي تستغرق مدة تبلغ من 8 إلى 15 يومًا، يُصبّ بعدها السائل في قوارير كبيرة، تُدفن تحت الأرض حتى رقبتها، وتغلق فتحتها بسدَّادة خشبية، يُحكم إقفالها بالجبس، وعلى الرغم من هذا الاحتياط، فإن النبيذ لا يظل على حاله لأكثر من بضعة شهور، نجده بعدها عادةً، في حالة خل".

ويضيف الكتاب معلومة مهمة تقول إن نبيذ "إقليم المريوطية" كان شهيرًا في وقت من الأوقات، وأن النبيذ ـ يسميه أيضًا "العرقي" ـ لم يكن يستهلكه في العادة سوى الأقباط، مشددًا على أن الأرض المصرية يمكنها أن تنتج كرومًا ينافس "كروم الأرخبيل"، ويضيف:

"قد يكون من الصعب، أن نتعرف في تلك الطرق التي تتبع لصناعة نبيذ الفيوم، الذي لا يستهلكه في العادة إلا الأقباط، على تلك الأساليب التي كانت تتبع في الماضي لصنع نبيذ إقليم المريوطية الشهير، ومع

ذلك فإن أعناب مصر، بالغة الجودة، فالأرض صالحة للغاية لزراعة الكروم، ولا جدال في أنه لا يزال بإمكان هذه البلاد، أن تُنتج كرومًا قيمته تماثل كروم الأرخبيل. وبخلاف خل النبيذ "العرقي" يُصنع في مصر نوعان من الخل، "العرقي"، أحدهما من "العنب" المجفف، والثاني من "البلح، ولا يتجاوز عدد مصانع التقطير في القاهرة من 10 إلى 12 مصنعًا".

الحشَّاش.. والأفيوني .. والمعجونجي

وعلى الرغم من أن علماء الحملة، تحسَّروا على تخلف صناعة الخمور في مصر، إلا أن الأمر اختلف بصورة ملحوظة، خلال دولة الباشا، الذي حكم البلاد فعليًّا نحو نصف قرن، بعقلية التاجر المسيطر على أرضه ومشاريعه وتجارته الداخلية والخارجية وصاحب المزاج في نفس الوقت، كما بقبضة الرجل العسكري، الذي كان يواجه مخاطر دولية دائمة، في ظل صراعه المكشوف مع رموز الدولة العثمانية ورجالاتها الأقوياء، والدخول في حرب معها في نهاية المطاف، الأمر الذي دفعه إلى تحديث البنية التحتية المصرية للاستفادة منها في المواجهة التي كان يراها حتمية مع الباب العالي، ما دفعه إلى إرسال البعثات إلى أوروبا ومتابعتها بالخطابات والفرامانات الحاثَّة على "تحصيل الفنون والصنائع"، وبعد عام واحد من وفاة عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ المتحفِّظ، كان شيخ أزهري شاب اسمه رفاعة الطهطاوي، في طريقه إلى مدينة "مارسيليا"، إمامًا لبعثة أرسلها محمد علي لدراسة علوم طبيعية وتكنولوجية وعسكرية في فرنسا، ساعتها فقط تغير الموقف

من العالم الغربي، بالضبط كما تحلحل الموقف الرسمي من الخمور، خصوصًا من جانب شيخ أزهري مُعمم، كان معنيًّا بتسجيل حياة وعلوم ومعارف الأمة الفرنساوية.

في كتابه المؤسس "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" نستطيع أن نلحظ تغير الموقف من الخمور، فهو يتحدث بأريحية عن الخمور وأحوالها في مصر وفي "باريز"، ونحن نفهم من بين سطور الطهطاوي أن الخمور كانت أمرًا طبيًا معروفًا وشائعًا للعلاج بين المصريين بصورة – ربما - كانت ضارة في بعض الأحيان، مما دفع الطهطاوي إلى الإشارة إلى ذلك بوضوح، في الفصل التاسع من "تخليص الإبريز" بعنوان: "في الكلام عن اعتناء باريس بالعلوم الطبية"، حيث يلوم الثقافة الطبية الشعبية في مصر، لأنها بمجرد ظهور علامات الحمى على المريض، تسارع إلى "تعريقُه"، سواء بالأغطية أو بـ "شوربة الخضراوات" أو "بالخمر حارًا أو حلوًا"، وهو في كل مرة تناول فيها الخمور في كتابه هذا، كان ينطلق من موقف مدني - لا ديني - حيث يسرد لنا موقفًا جرى معه هو شخصيًا في فرنسا، حينما كان يمر بجوار أحد المشارب، وفجأة ناداه أحد السكارى "يا تركي" وقبض ملابسه، فما كان من الطهطاوي إلا أن أدخله أحد المحال، وأجلسه في هدوء، وسلمه لمن يعتني به، لافتًا إلى أن انتشار الخمور في فرنسا، لا يُعتبر أمرًا ضارًا في حد ذاته، مادام الشراب في حدود المعقول، مشيرًا إلى فتنة العرب بالخمور ووضعهم أسماء كثيرة لها، بقوله:

"والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء، وفي الغالب خصوصًا لأكابر الناس، يشرب من النبيذ قدرًا لا يسكر به أبدًا، فإن السُّكْر عندهم من العيوب والرذائل، وبعد تمام الطعام ربما شربوا

شيئًا يسيرًا من "العرقي" - نوع من الخمر- ثم إنهم مع شربهم لهذه الخمور لا يتغزلون بها كثيرًا في أشعارهم، وليس لهم أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلًا، فهم يتلذذون بالذات والصفات ولا يتخيلون في ذلك معاني ولا تشبيهات ولا مبالغات".

خلال الفترة نفسها قال طبيب محمد علي باشا، العالم الفرنسي "كلوت بك" (1793 ـ 1868) ميلادية[54]، في كتابه الشهير "لمحة عامة إلى مصر"، إن المصريين يتناولون الحشيش أكثر من الخمور، لكنه لفت إلى "البوظة"، التي يتناولها قليل من المصريين، يقول: "ولدى المصريين نوعٌ من الجعَّة (البيرة) يسمونه "البوظة"، وطريقة تحضيرها تقتصر على تخمير الشعير، وهي كثيفة القوام جدًا كَمدة اللون ذات طعم رديء في أفواه الأوروبيين، ولذيذ جدًا في حلوق أبناء البلاد"، لافتًا إلى أن "العرقي" -المُستخْرَج من البلح- هو الأكثر شيوعًا والأقل ضررًا من استعمال النبيذ".

ثم ينتقل الطبيب الفرنسي إلى الحديث عن الحشيش، باعتباره "مخدِّر مجهَّز" كلف بتعاطيه المصريون، وهو مستخرج من القُنَّب المصري، وطريقة استخراجه: "تُسحق ثمار هذا النبات، حتى تصير إلى عجينة، ثم تطبخ بالعسل والفلفل و"جوزة الطيب"، وخلاصات عطرية، وبعد طبخها تصنع منها أقراص صغيرة ضاربة اللون إلى الخضرة تافهة الطعم قليلًا عند المذاق، ويكفي للمرء أن يبتلع منه

54 ـ أنطوان براثيليمي كلوت، المعروف بـ كلوت بك، طبيب فرنسي قضى معظم حياته في مصر، بعدما عهد إليه محمد علي باشا تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري، وصار رئيس أطباء الجيش. ومنحه محمد علي لقب "بك" تقديرًا لجهوده. وقد نقل جيلبرت سينويه، الكاتب الفرنسي من أصل عربي، عن "مذكرات دكتور كلو" في كتابه "محمد علي الفرعون الأخير" أن الباشا "كان مقبلًا على الشراب ـ يقصد الخمور ـ خلال إحدى فترات حياته".

قطعة بحجم البندقة، ليشعر في الحال بنتائج تأثيرها، وفي بعض الأحيان يجهز الحشيش سائلًا كالشراب، وعلى هذه الصورة يستعمله الفقراء، وفي الغالب يتخذ منه مسحوق يدخن ضمن ما يحرق في نوع من الشيشة يسمى "الجوزة"، وهو في هذه الأحوال المختلفة يُحدث عند مَن يستعمله غيبوبةً غريبةً، لا تلبث أن تتحول إلى أقوالٍ وأفعالٍ شاذة".

لا ينسى الطبيب الفرنسي، أن يذكرنا بأنه كانت هناك أماكن يتعاطى فيها المصريون الحشيش، في "القهاوي العامة" وفي حوانيت خاصة تسمَّى "المحاشش"، ما قد يعني أنه كانت هناك في هذا التوقيت المبكر، "بوظ" أيضًا لتناول البيرة المصرية، إلى جوار "محاشش" لتعاطي الحشيش، في حالة من الحرية المطلقة.

بعد "كلوت بك" بنحو عشرة أعوام، رَصَدَ الرحالة البريطاني والمستشرق المؤسس، إدوارد وليم لين، في كتابه "المصريون المحدثون عاداتهم وتقاليدهم"، اعتدالَ المصريين المثالي، في تناول المشروبات المُسكرة، يقول إنه قلما شاهد مصريًّا سكرانًا "ما لم يكن عازفًا في سامر، أو راقصة، أو عاهرة من السِّفلة"، مضيفًا عدة أسطر بخصوص شراب "البوظة"، يقول: "أشرت قبلًا إلى شراب "البوظة" المخمر، الذي يشربه كثير من ملاحي النيل، وآخرون من الطبقات السفلى، في مصر، وقد شاهدتُ في مقابر "طيبة" جرارًا كبيرة تحوي ثمالة جعَّة من ذلك النوع المصنوع من الشعير".

يفْرِد لين - الذي زار مصر مرتين خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر- صفحاتٍ لسرد علاقة المصريين بمشروب "الحشيش" تحديدًا، الذي كان الأكثر انتشارًا ويُشرب بالطبع علانية في بعض

المقاهي، التي أحصاها بـ "ألف قهوة"، وتحت عنوان، "الفصل الخامس عشر استعمال التبغ والبن والحشيش والأفيون"، يقول:

"إن تحريم الخمر بأنواعها في التشريع الإسلامي جعل المسلمين يلجأون إلى وسائل أخرى تسبب لهم نشوة خفيفة أو ضروبًا مختلفة من الطرب الشديد. وأكثر هذه الوسائل انتشارًا في أغلب البلدان الإسلامية، ما يسميه العرب "كيفًا"، وهو تدخين التبغ، ولا يمكنني أن أترجم هذا اللفظ، بأكثر من "لذة لطيفة"، ويبدو أن هذا التبغ أُدخل إلى "تركيا" و"جزيرة العرب" وغيرهما من بلاد الشرق، قبيل القرن السابع عشر من الميلاد، (في الهامش يقول إن الإسحاقي يعتقد في أن عادة التدخين بدأت تنتشر في مصر في عامي "1010 ـ 1012" هجرية، أي "1601 ـ 1603" ميلادية)، أي بعد سنوات قليلة من انتظام تصديره كسلعة تجارية من أمريكا إلى أوروبا الغربية، وكثيرًا ما اشتد الجدل حول إباحة التدخين للمسلم، غير أن ذلك جائز الآن، وقد غير التبغ من طباع المدمنين عليه من الترك والعرب، وجعلهم على الأخص أكثر كسلًا مما كانوا عليه قبلًا، فهم يضيعون في تدخين شُبُكهم وقتًا طويلًا".

يعتقد لين أن التبغ أغنى المصريين إلى حد كبير عن استعمال النبيذ، الذي يضر على الأقل بصحة سكان الأقاليم الحارة، ويضيف: "تقدم قصص ألف ليلة وليلة التي كتبت قبل استعمال التبغ في الشرق، والتي تصور لنا بلا ريب عادات العرب وشمائلهم في ذلك الوقت، تصويرًا صادقًا، تقدم هذه القصص أدلة وافرة على أن المسلمين وقت إذ أو في العصر السابق مباشرة، كانوا يشربون النبيذ علانية، ويمكن أن نقول دفاعًا عن الشُّبُك، (الجوزة)، كما يستعمله العرب والترك إن أنواع التبغ الخفيفة التي يستعملونها عادة لها تأثير لطيف، فهي تُهدئ الجهاز

العصبي وترهف الذهن بدلًا من أن تبلده، ولا شك أن الشُّبُك يتضمن كثيرًا من ملذات الشرقيين، ويقدم إلى الفلاح منعشًا رخيصًا زهيدًا ويبعده في الغالب عن الملذات المضرة".

يُسهب لين في وصف طرق إعداد الحشيش، وتـأثيره لافتًا إلى "المحاشش" التي تبيعه بالإضافة إلى بعض المقاهي، ويصف "المحاشش" بأنها "محال أصغر حجماً وأكثر عزلة خصصها أصحابها لبيع الحشيش، وغيره من المخدرات، لافتًا إلى التسلية التي يجدها المرء في "مهازل" مَن يترددون على هذه الأماكن ويستمع إلى أحاديثهم، معتبرًا إياهم من "الطبقة الدنيا"، مشيرًا إلى أن مضغ أوراق القُنَّب لإحداث النشوة في الهند، منذ العصور الأولى، ومن ثم دخلت فارس، وقد انتقلت هذه العادة المضرة المذلة، إلى مصر منذ ستة قرون تقريبًا - أي قبل منتصف القرن الثالث عشر من الميلاد - فأولع بها على الأخص أفراد من الطبقة الدنيا، على أن كثيرًا من أفاضل رجال الأدب والدين، ومن الفقراء، استسلموا لإغرائها وأيدوا جوازها للمسلمين، وقد انتشرت هذه العادة الآن بين الطبقات السفلى، في العاصمة وفي غيرها من مدن مصر".

يفصِّل لين صناعة الحشيش وطرق تناوله قائلًا: "ولإعداد الحشيش وسائل مختلفة يطلق على كل منها اسم مختلف، نحو: شيره ـ نسبة إلى شيراز بفارس ـ وبَست، إلخ.. ويقال إن الشائع هو استعمال أوراق القُنَّب الغضة، وحدها أو مخلوطة بالتبغ، للتدخين، وسحق الحقاق، دون البذور، ومزجها بمواد عطرية، لصنع معجون مخدر. والحوامض تفسد فعل الحشيش، ويثير الحشيش المعد للتدخين طربًا شديدًا. وهو يدخن في الجوزة، فيسحب المدخن أنفاسًا سريعة، ثم نفسًا طويلًا يخرجه من

الفم والأنف، ويتبعه بنــوبة سعال، وبصــاق دام ينشــأ من امــتلاء الرئتين بالدخان".[55]

ثم ينتقل إلى الأفيون مشيرًا إلى أنه يُباع أيضًا في "المحاشش"، وأن استعماله في مصر، بقدر شيوعه في كثير من البلدان الشرقية الأخرى، معتقدًا أن نسبة شاربي الأفيون من المصريين إلى مجموع السكان ليست كبيرة بقدر نسبة الانجليز المولعين بالسُّكْر على سبيل المثال، ويضيف:

"يُسمى آكل الأفيون أفيونيًّا" ويعتبر هذا اللفظ أقل مهابة من كلمة "حشاش"، إذ أن هناك كثيرًا من أفراد الطبقتين، الوسطى والعليا، تصدق عليهم هذه التسمية. ويتعاطى مَن لم يدمن الأفيون، هذا المخدر خامًا، بقدر ثلاث حبات أو أربع. غير أن الأفيوني يزيد المقدار تدريجيًّا. ويصنع المصريون معاجين من الخربق والقُنَّب والأفيون، وعقاقير عطرية أخرى، يتناولونها أكثر من الأفيون وحده عادة، ويسمى صانع المعجون أو بائعه معجونيًّا وأكثر تلك الأنواع شيوعًا يسمى "برشًا"، ويقال إن من الأنواع ما يميل بمتناوله إلى الغناء أو المزاح أو الرقص، أو يثير فيه أحلامًا لذيذة".

الباحثة الدكتـورة هيـام صابر ترسم لنا لوحةً تدل علـى مـدى اهـتمام جيش مـحمد علي باحتــياجات الجـنود الــفلاحين المصريين إلى التدخين

55 ـ يقول مترجم "المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم" عدلي طاهر في الهامش إن التاريخ الإسلامي عرف "طائفة الحشاشين"، كإحدى شُعب الحركة الإسماعيلية، التي كان يرأسها أغا خان، وكان بصفته سليل أمراء الحشاشين يزعم أنه ينتسب إلى أحد فروع الدولة الفاطمية، وهذه الطائفة أنشأها حسن بن الصباح، في فارس وسورية، وقد قوي نفوذ الحشاشين بسورية، ويقال إن شيخ الطائفة كان يخدر مريديه ثم يرسلهم إلى مكان معد لينعموا فيه بكل ما يلذ حواسهم".

عام 1815، حتى في نهار رمضان وعلى أراضي شبه الجزيرة العربية، وتدلل على مدى عشق المصريين للدخان، مستندة إلى ما ورد في تاريخ الجبرتي:

"بمرور الوقت أصبح التدخين مكملًا للمأكل والمشرب، وربما لا يصحان بدونه، ونستدل على ذلك مما قام به الجنود الذين أعدهم محمد علي باشا للسفر إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين، إذ وافق حلول شهر رمضان وقت خروجهم من المدينة، لذلك كانوا يأكلون ويشربون جهارًا في النهار، وإذا مروا بالأسواق يجلسون على المساطب، وبأيديهم الأقصاب والشبكات، التي شربوا فيها الدخان، وإذا تحدث إليهم أحد قالوا نحن "مجاهدون ومسافرون".

خمور الباشا

هكذا كانت الخمامير مفتوحة، وتعمل وفق نظام ضرائبي دقيق، وكانت أكثر من عشرة مصانع تقطير تنتج الخمور، حتى قبل أن يدخل نابليون بونابرت هذا البلد بعشرات السنين، وحين جاء تاجر الدخان الألباني، مؤسس الأسرة العلوية ـ حكم مصر بين عامي (1805 ـ 1848) ـ لم يكن أمامه سوى تنظيمها والاستفادة إلى أقصى حد من ضرائبها، لدرجة أن الجنود كانوا يتناولون الخمور، ويمارسون الدعارة بانتظام - وفق القانون - داخل الوحدات العسكرية، وخلال الحملات العسكرية أيضًا، وما أكثرها في عهد محمد علي.

ولعل الحديث عن أن الخمور كانت حكرًا على قصور الحكم خلال الحكم العثماني وما بعده، لم يعد حديثًا ذي جدوى الآن، بعدما تبيَّن

أن بعض بسطاء المصريين عرفوا طريقهم إلى الخمامير الرخيصة منذ مصر القديمة، لقد كانت ما تشربه قصور الحكم من خمور أوربية مستوردة، أو مصنّعة محليًّا بمواصفات أوروبية خلال القرون الخمسة الماضية، انعكاسًا طبيعيًّا لما يشربه الفقراء من خمور رخيصة من "بوظة" وأنواع محلية من البيرة و"العرقي" والنبيذ المصنع محليًّا، وأن الفارق بين الغلابة والحكام، في تناول الخمور، هو فارق في الكم فقط، فنحن نعرف الآن أن الخمور كانت متاحة بوفرة في قصور الحكم أيام محمد علي، وأن "الجوزة كانت عامرة دائمًا بجواره"، كما أننا نعرف أبناء الأسرة العلوية[56] كانوا يسرفون في شرب الخمور الأوربية إسرافًا يصل إلى حد السفه أحيانًا، ونحن نملك دليلًا - لم يكذِّبه أحد - على أن أكبر أبناء محمد علي "إبراهيم باشا"، مات منتصف القرن التاسع عشر، عندما شرب قارورتين من الشامبانيا المثلّجة تثليجًا شديدًا دفعة واحدة، حينما كان جسمه ساخنًا جدًا"[57]، على الطريقة التي انتقد بها رفاعة الطهطاوي الثقافة الطبية للمصريين في تعاملها مع "الحُمى".

ومثلما تغير موقف النخبة الأزهرية، من الخمور في عهد محمد علي، شهد عصر الباشا حراكًا اجتماعيًّا وسياسيًّا واسعًا في الشارع المصري، حيث بدأت بعض ملامح الدولة الحديثة تظهر على الأرض، وهي الملامح التي دأبت كتب التاريخ على اعتبار أن بانيها هو مؤسس "مصر الحديثة"، هكذا بمفرده، دون الإشارة إلى جيش جرار من الموظفين والجنود والمنتمين إلى الأعمال الإدارية المختلفة، داخل هذه الدولة

56ـ انتهى حكم أسرة محمد علي فعليًّا بقيام حركة "الضباط الأحرار" 23 يوليو 1952.

57ـ "مصر الحديثة ـ اللورد كرومر"، وإبراهيم باشا هو الابن الأكبر لوالي مصر محمد علي باشا، نُصِّب كقائم على العرش نيابة عن أبيه منذ 2 مارس حتى وفاته السريعة 10 نوفمبر 1848.

الوليدة، ومن دون الالتفات إلى كمية الضرائب الباهظة التي فرضها على أعمال الترفيه التي كانت تتم بموجب رخصة تصدرها الدولة، وتحصِّل بناء عليها ضرائب، اعتبرت موردًا لا ينفد لتمويل خزينة الدولة، وتوفير المال السائل اللازم، من أجل مشاريع الباشا الاستعمارية، ورفع راية جيوشه في مناطق كثيرة من العالم.

والحق أن قراءة دفاتر الضرائب في دولة محمد علي - ومن دون انحياز إلى فكرة "مؤسس مصر الحديثة" غير الدقيقة - تشي بأن المشعوذين ومحترفي ألعاب القمار والمتكسبين من الألعاب البهلوانية والراقصات وبائعي الحشيش والمشتغلين بالمهن الترفيهية، كانوا من دافعي الضرئب المحترمين في عهد محمد علي، وربما أسهموا بضرائبهم في بناء "مصر الحديثة" تلك، أكثر من محمد علي ذاته، الذي استغل حاجة المصريين في ظل العمل الجبار الذي يقومون به لبناء دولتهم إلى كل أسباب الترفيه والمتعة، ومارس ابتزازهم بتقنين استخراج مئات الرخص من الدولة للاتجار في الحشيش، وجلب المزيد من المال إلى الخزانة، وهذه واحدة من أهم دارسيه، الدكتورة عفاف لطفي السيد، تقول هذا المعنى بوضوح وصراحة في كتابها المهم "مصر في عهد محمد علي"، واصفة إياها بالمصادر المُدرة للمال في عهد الباشا وفلسفة الضرائب عنده قائلة: "كانت هذه الإقطاعات تشمل عددًا من المصادر المدرة للأموال، مثل جمارك الإسكندرية ودمياط ومصر القديمة، و"بولاق" والخردة، (التي كانت في الماضي إقطاعًا ممنوحًا لكتيبة "العزب") وكان يتضمن المشعوذين ومحترفي ألعاب القمار والمتكسبين من الألعاب البهلوانية والراقصات وبائعي الحشيش والمشتغلين بالمهن الترفيهية، وهؤلاء كانت تصدر لهم رخص سنوية".

الباشا لم يكن يعرف في الضرائب إلا جلب الأموال، بغض النظر عن مفهوم "الحلال والحرام"، مثلما لم يكن يعرف - أيضًا - في الجيش سوى إرضاء كبار الضباط أولًا، ثم القادة من الصف الثاني، إلى أن يأتي في المرتبة الأخيرة إلى مرحلة إرضاء الجنود، بعيدًا عن "الحلال والحرام" أيضًا، فالرجل الذي كان يعرف قيمة الاحتفاظ بجنود أشداء ومدربين على أحد الأسلحة، لمواجهة تحديات عصره السياسية في البر والبحر، كان راغبًا جدًا في الحفاظ على قواه العسكرية يقظة، وفي كامل سطوتها، ولذلك كان يعطي التكليفات عادة بإرضاء الجنود، الذين يحاربون تحت راية لا تحمل اسم البلد أو علم الوطن، بل كانت تحارب تحت رايات تحمل اسمه هو فقط "جيش محمد علي باشا"، الأمر الذي أشار إليه الدكتور خالد فهمي في كتابه المهم "كل رجال الباشا"، مستندًا في سرد تفاصيل رؤيته الاجتماعية لبناء مصر الحديثة، إلى وثائق تركية تقول الكثير عن مشكلات تناول الخمور داخل وحدات جيش الباشا، وحتى عن ممارسة الدعارة،[58] كوسيلة للتنفيس عن هؤلاء الجنود، وهذه الوثائق التي ترجمها فهمي لأول مرة، تكشف أيضًا عن ممارسات بعض الجند والضباط داخل الوحدات، مشيرة إلى أي حد كانت حرية تناول الخمور وممارسة الدعارة متاحة بوفرة في جيش الباشا.

ومن بين الوثائق التي كشفها فهمي - طالعنا طبعته الـ -18 واحدة

58 ـ "حتى العام 1833 كانت الدعارة مهنة مشروعة قانونًا، تُجبى منها الضريبة، وتشددت حكومة محمد علي في جمعها، غير أن ديوان الخديو ناقش المسألة في مايو 1834 وقرر أن يلغي الضريبة ويحظر نشاط الحرفة بأكملها في القاهرة". "كل رجال الباشا"، صفحة 321، لكن عام 1885 وبعد دخول قوات الاحتلال البريطاني لمصر، صدرت "لائحة التفتيش على العاهرات"، والتزمت العاملات في المهنة بمقتضاها بالتسجيل لتجنب العقاب، واستمر العمل بها إلى أن تم إلغاء العمل بقانون الدعارة، منتصف القرن العشرين، وتحديدًا يوم 20 فبراير عام 1949.

تشير إلى عام 1836، بعد سنوات من بدء الحملة العسكرية على الشام، حيث قدم "ملازم ثان" في آلاي الحرس، الذي يقوده أحمد باشا الملنكلي عرضحالًا إلى الباشا محمد علي مباشرة، شاكيًا من عدم ترقيته منذ ست سنوات، فهو لا يزال في رتبة "ملازم ثان" بينما رُقي بعض ضباط دفعته إلى رتبة "يوزباشي"، وذكر "الملازم ثاني" أن سبب ذلك هو أن الصاغ الذي يرأسه أحمد أفندي، "ليس بينه وبينه محبة زائدة"، وأضاف الملازم في شكواه لمحمد علي مباشر أن: "الصاغ يقيم حفلات لشرب الخمر كل ليلة في خيمته، ويدعو أوزباشي أورطته لـ "يصير بينهم رابطة، بأنهم يصدقوه "يثنوا عليه" عند الميرالاي".

يقول فهمي: "ومما لا يخلو من دلالة أن محمد علي في رده على هذا الالتماس لم يأمر بالتحقيق في سلوك كبار الضباط، الذين وردت أسماؤهم فيه، واكتفى بأن أمر وكيل ناظر الجهادية بالتحقيق في الأمر، و"راحت" الرجل إذا كان على حق و"إسكاته" إن لم يكن".

هكذا إذن كان محمد علي رجلًا نفعيًّا بامتياز، يعرف كيف يستغل الظروف كلها لمصالحته الخاصة، التي كانت تتجسد في ضرورة بناء أجهزة ومؤسسات للدولة التي يرى أنه بناها بمجهوده الخاص، "الدولة / الشركة"، وقد نجح في توريثها لأولاده وأحفاده من بعده، وقد كان يعيد تفسير كل شيء وفق هذه الغاية، ففي فصل عنوانه "الحياة خلف الخطوط"، يشير فهمي بدقة إلى تفاصيل منع المومسات من دخول وحدات الجيش، حيث "كن يجلبن معهن عند دخولهن إلى المعسكرات خمورًا"، ويورد واقعة القبض على اثنين من الجند" وهما "عربجي درويش" و"البلطجي عثمان" وهما ينتميان إلى "آلاي الهندسة العسكرية"، والحكم عليهما بخمس وسبعين ومائة وخمسين جلدة،

بسبب الاضطرابات التي تسبّبا فيها بعد السُّكْر، لافتًا إلى ظاهرة عربدة الجنود سكارى خلال الحملة العسكرية على سوريا، لذلك تم حظر الحانات بنفس الحزم، الذي حظرت به بيوت الدعارة، لكنه كان حظرًا شكليًّا فقط، يقول:

"حين عوقب العربجي درويش والبلطجي العامل بآلاي الهندسة العسكرية" عثمان بخمس وسبعين ومائة وخمسين جلدة، بالكرباج على الترتيب، كانت العقوبة ترجع إلى الاضطرابات التي تسببا فيها بعد سكرهما، أكثر مما ترجع إلى القبض عليهما في بيت للدعارة، وترجع حالات عديدة إلى السلوك غير المنضبط من جانب الجنود في سوريا إلى سكرهم في الحانات، وخروجهم إلى الشارع يسيئون للكبار والصغار والمسيحيين بلا سبب، لذلك تم حظر الحانات بنفس الحزم، الذي حظرت به بيوت الدعارة. ومرة أخرى، وكما في حالة بيوت الدعارة لم يكن الحظر مطلقًا، فقد أمرت الحانات القريبة للغاية من المعسكرات وحدها بالإغلاق، وحين فتح أحد الأجانب حانة، قرب مسجد في عكا، طُلب منه بلطف أن يغلقها وينتقل إلى الحي الأفرنجي، وربما يرجع ذلك إلى أنه جرؤ على فتح الحانة، بالقرب من مسجد، لكن واقع الحال كان السماح له بفتحها في مكان أبعد، يعني أن السلطات لم تكن مُهتمة اهتمامًا بالغًا بالأخلاق والآداب العامة، وعلى أية حال، وكدليل على أن إدارة الباشا في سوريا لم تكن بالغة التشدد في الحظر الكامل للحانات، أمر محمد علي شريف باشا حكمدار عربستان "سوريا"، بكتابة كشف بالإيرادات المُجباة من الحانات في الولاية بأكملها".

وبات لدينا ما يثبت البارات بمعناها الحالي كانت منتشرة انتشارًا واضحًا في عدد من مدن الشام، بالإضافة طبعًا إلى مصر، إبان الفترة

التي دخلت فيها جيوش إبراهيم باشا، عام (1831)، وأن بعض أحياء هذه المدن -مثلما في المدن المصرية وقتها - كانت مخصصة للجاليات الأجنبية، بسبب رغبة حكومات الدولة العثمانية في جمع ضريبة "أمانة مقاطعة الخمر"، التي أقرها القانون العثماني - كما رأينا في الفصل السابق - من أبناء هذه الأحياء من المسيحيين واليهود ومن الأجانب، فكانت تجمعهم في حي واحد ليسهل تحصيل الضريبة، من ناحية وتمنع اختلاطهم بالمسلمين من ناحية أخرى تجنبًا للمشكلات الثقافية، كما يشير فهمي إلى أن محمد علي حين أمر واليه على سوريا "عربستان"، بحظر افتتاح الحانات قرب وحدات الجيش في سوريا، لم يكن الأمر صارمًا – كالعادة - بما فيه الكفاية، مشيرًا إلى أن هناك حانة افتُتحت قرب مسجد في عكا، تم إغلاقها فورًا، ثم تم السماح لصاحبها بافتتاحها في مكان آخر.

في كتابه "تجار القاهرة في عصر محمد علي" يشير دكتور رزق حسن نوري[59] إلى بيان خمارات حي الأزبكية، عام 1833، وفق تعداد النفوس، كان 7 خمارات، منها خمارة تملكها امرأة مسلمة تدعى "الست نفيسة"، وخمارتان تملكها الحكومة "الميري"، وثلاث خمارات يملكها أقباط.

ونظرًا لطرافتها، نختتم هذا الفصل بقصة من كتاب "هوامش المقريزي" للكاتب القدير الراحل صلاح عيسى، عن واحدة من أغرب محفوظات دواوين الحكومة المصرية، والتي تتضمن أوامر للباشا مكتوبة بلغة ركيكة، لكنها تشي بأن الرجل كان حريصًا على تناول

59 ـ "تُجَّار القاهرة في عصر محمد علي" تأليف دكتور رزق حسن نوري الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2018.

"المعجون"، مولعًا بالمكيفات وعلى رأسها "القهوة"، وكان يضاف إليها العنبر وزيت الحبهان وبعض المواد المخدرة، وكان ساقيه يقف إلى جانبه، ليقدم له القهوة كلما طلبها، ورأى الوالي أن يضيف إلى الساقي والموظف الذي يحمل حُق العنبر موظفًا ثالثًا، هو "المعجونجي"، وجاء نص المرسوم الملكي على هذا النحو المثير للعجب:

"نظرًا لما عرف به محمد الصهبجي من توليف المزاج وتوضيب القهوة، فقد اخترناه ليكون "معجون أغاسي"، مهمته تقديم المعجون لنا في أي وقت، وقد رأينا أن المذكور يستحق أن يعيّن بكيس كامل، (أي 500 قرش)، لما ثبت من حسن إخلاصه وأنه ذو مفهومية وله تفانين".[60]

60 ـ "هوامش المقريزي" ـ للكاتب صلاح عيسى ـ دار الكرمة للنشر.

الفصل التاسع

دور البارات في انفجار «ثورة عرابي»

(دار السيد العجان بالمالطي على خمارات الحي الأوربي. سكر تمامًا. خرج من آخر تلك الخمارات. ركب العربة مرة ثانية. قلق "العربجي" لأن الخواجا قد سكر وسيكون التفاهم معه صعبًا. لفت نظره إلى أن الساعة قد قاربت الواحدة. كانت العربة قد وصلت إلى شارع "السبع بنات".

وقفت عربة السيد العجان أمام قهوة القزاز. توجه المالطي إلى حانة صغيرة بجوارها. كان صاحب الحانة يقف خلف المنصة. طلب المالطي كأسًا. على المنضدة قالب من الجبن الرومي، يقدم كجزء من المزَّات للرواد، ويُقطع بسكين حاد، يتصل بخيطٍ ثبت طرفه الآخر في الطاولة..

دخل السيد العجان خلف الخواجه، طالبًا منه أجره، قال المالطي إنه سيستعمل الحنطور مرة أخرى، وعلى العجان أن ينتظره، رفض العجان. كان منظر المالطي يوحي بأنه أوشك على الإفلاس، استثار إصراره غضب الخواجا، أخرج قرشًا واحدًا من جيبه وألقاه في إهمال للعجان، ثار الأخير وطالب بحقه. تصاعد الغضب. تشاتم الرجلان. لم يلتفت أحد لتشاجرهما، لأنه شيء عادي يحدث كل يوم. فجأة تناول الخواجا السكين وطعن به السائق في بطنه سقط العجان يتلوى على الأرض).

"حكايات من دفتر الوطن" ـ صلاح عيسى

إذا كنا قد تبيَّنا خلال الفصول السابقة، حقيقة حصول المصريين على حقهم في تناول الخمور وفق القوانين المنظمة لذلك، وحقيقة وصول مجموعات من الطبقة المتوسطة والأقل من المتوسطة، إلى حقهم في تناول الخمور المحلية في أماكن معروفة، أطلق عليها "الخمامير"، منذ عصور مصر القديمة فإننا سوف نرصد في هذا الفصل الدور الكبير الذي لعبته دولة محمد علي، في التوسع في إنتاج الخمور وتجارتها وتداولها، وتقنين أوضاع البارات في شكلها الحديث، بغية تسهيل فكرة تحصيل الضريبة عليها، إلى حد غير مسبوق، وإلى أن أصبحت البارات والمحاشش بالتبعية جزءًا من صورة المدينة الحديثة، التي تمتعت بها "مصر المحروسة" - وسط مُحيط عربي بائس في أغلبه وخارج التاريخ تقريبًا - خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد أطلق محمد علي حرية شرب الخمور وممارسة الدعارة لجنوده، سواء في داخل الوحدات أو أثناء الحملة العسكرية على سوريا، مثلًا، وسمح لكثير من البارات بأن تفتح أبوابها، بشرط أن تكون في أحياء بعيدة عن معسكرات الجند، مُفضلًا أن تقتصر البارات على أحياء الأجانب فقط، معتبرًا ما تجنيه خزينة الدولة من الضرائب على تجار الخمور وأصحاب البارات، وحتى على تجار الحشيش والراقصات والعاملين في قطاع الأعمال الترفيهية عمومًا، سببًا مُقنعًا جدًا لاستمرار كل هذه العناصر في تقديم الخدمة، وممارسة تأثيرها المباشر على الثقافة الوجدانية للشعب المصري، ودخولها كمفردة أساسية من مفردات التسلي والترفيه في الثقافة المصرية.

وما كان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بقايا "خمامير قديمة"، إلى جوار عدة بارات أوربية حديثة، سمح بافتتاحها محمد علي، أصبح خلال النصف الثاني من القرن ذاته، حقيقة تشهد انتشارًا غير مسبوق للبارات -المُصممة على النمط الأوربي - في شوارع مصر، وفي عدد من المدن العربية الكبرى على السواء، خصوصًا في فلسطين والشام.

والذي حدث في مصر أنه بعد رحيل محمد علي باشا بسنوات قليلة، بدأت موجة تأسيس بارات في المدن الكبرى، بالتزامن مع التصاعد السريع -الذي يؤكده المؤرخون جميعًا - للوجود الأجنبي في مصر، وبينما كانت الدولة لا تزال تصدر تراخيصها لتأسيس الخمور، وتحصِّل ضريبتها منها بانتظام وارتياح، كانت إمبراطورية تاجر الدخان الألباني بادئة في التحلل، بانتهاء عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر، حيث لم يكن أمام الرأسمالية الصناعية المتحفزة، في ذلك العهد "بريطانيا العظمى"، إلا أن تأتي إلى مصر بخط للسكك الحديدية، ربما ساعد ذلك "التاج البريطاني" على التهام ما تبقى من خيرات "أم الدنيا".

المؤسف أن هذا القطار الذي أطلق صافرته الصاخبة الأولى من "باب الحديد" عام (1856)، على يد المهندس الإنجليزي روبرت ستفنسن ـ نجل مخترع القطار البخاري في لندن جورج ستفنسن ـ لم يفزع المصريين ويلفتهم إلى بداية السيطرة الإنجليزية على مصر، بقدر ما أشعرهم بالفخر بعد المكانة التي تحتلها "محطة مصر" كثاني محطة قطار في العالم، بعد "محطة قطارات لندن"، قلب الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس.

لقد دخل القطار الإنجليزي السريع مصر حاملاً معه حفنة من الأوروبيين "الأوغاد"، من الإسكندرية إلى القاهرة، في رحلة أصبحت لا تستغرق أكثر من 10 ساعات، بعدما كانت تستغرق بالوسائل الأخرى عدة أيام، وخلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، كان خلفاء محمد علي يبالغون في الاستدانة والسفه - رأينا في الفصل السابق كيف مات ابنه الأكبر إبراهيم باشا بعد تناول قارورتين من الشامبانيا المثلجة - في وقت أصبح الدائنون الأوربيون يحصلون على المزايا الاقتصادية والاجتماعية والقانونية في مصر على حساب المصريين أنفسهم، أبناء البلد، والذين كانوا يعاملون - ويا للغرابة - معاملة المواطنين من "الدرجة الثانية"، ففي هذه الحقبة عرف المصريون ظلمًا غير مسبوق من جانب الحكومة، حيث حصل الأجانب على الأولوية في كل شيء، وبات وجودهم عبئًا على المصريين، ووصل التنافر بين الطرفين إلى درجة الغليان، مطلع الثمانينيات من القرن التاسع عشر.

في هذا الزمن كان المجتمع المصري متمدنًا إلى حد ملحوظ، لا على صعيد انتشار البارات فقط، بل عبر وسائل الاتصالات الحديثة وقتها "مثل التليغراف 1871"، ما وضعه مباشرة أمام قاطرة التمدن، في وقت أصبح حكَّام مصر فيه مادة خصبة وشهية للصحف الأوربية، خصوصًا بعد الإعلان عن الحفل الأسطوري لافتتاح قناة السويس، وبدء سيطرة هذا الشريان الملاحي المهم، على 40% من حركة تجارة السفن والحاويات في العالم، عام 1869.

في ظل هذه الصورة غير المسب،وقة من الحـضور الغربي في قـصور الحـكم وفي الشـارع، كان تأسـيس البارات - على الن،مط الأوربي - قـد

أصبح أمرًا مألوفًا وشائعًا جدًا في كثير من شوارع القاهرة والإسكندرية، بل وفي بعض مدن القناة الوليدة[61]، تلبية طبيعية جدًا لنداء ورغبات عشرات الآلاف من المهاجرين الأوربيين، الباحثين عن فرصة ثمينة للنهب أو للسطو أو لممارسة أعمال الاحتيال على القانون، بعدما أشاعت وسائل الإعلام الحديثة مثل الصحف والتليغراف، في أوربا كلها، أن أبناء أسرة محمد علي باتوا غارقين في الديون إلى حد غير مسبوق، ما أسال لعاب المغامرين، الراغبين في الحصول على فرصة المكسب السريع، والذين باتوا يظهرون على حقيقتهم – فقط - حينما يسكرون في الحانات، التي يسكر فيها عادة أيضًا طائفة لا يُستهان بها من المصريين الغاضبين بسبب تردي الأوضاع.

لقد استطعنا أن نستدلَ على الحجم الهائل لانتشار البارات والخمور بين المصريين في هذه الفترة - للأسف - عبر تتبع آثار الحروب الطائفية "المسجَّلة"، التي اندلعت عدة مرات بين مصريين وأجانب في بعض حانات وشوارع القاهرة والإسكندرية، قبل "ثورة عرابي" بسنوات، وكلها وقائع تشير إلى انتشار البارات انتشارًا لافتًا، داخل "الأحياء الأوربية" في المدن الكبرى أو خارجها، مثلما تشير كذلك إلى ضجر المصريين من تصرفات الأجانب، وهو الضجر الذي كان يبدأ وقتها بالانفجار في "معارك البارات" أو المقاهي، ولا ينتهي عند قيام "ثورة عرابي"، ودخول جيوش الاحتلال البريطاني أرض مصر عام 1882، حيث باتت البارات موضوعًا أساسيًّا في الثقافة المصرية، وفي

61 ـ أنتج التلاقح الثقافي المصري الإفريقي – مثلًا- في هذه الفترة "فن السمسمية"، في مدن قناة السويس، راجع "نشيد البندقية والرصاصة المقاومة على أنغام السمسمية"، محمود خيرالله ـ الكتاب الذهبي ـ روزاليوسف ـ الإصدار الثاني ـ العدد 6 ـ يوليو 2018.

النشاط السياسي منه على وجه التحديد.[62]

الحق أن قراءة وثائق هذه الفترة - أقصد العقديْن السابقيْن على "ثورة عرابي" - تجعلنا نشعر بقدرٍ لا يستهان به من الغبطة، حين نقول إن البلد الذي أنشأ الخمامير في هذا الزمن المبكر لم يكن يصعب عليه أبدًا أن يستوعب البارات، وأن يجعل منها سمةً جوهريةً من سمات الوجدان المصري، وجزءًا لا يتجزأ منه، بمعنى أنه كان هناك – دائمًا - قطاع من المصريين لا يمكن إنكاره من العازفين عن شرب الخمور بأنواعها، والذين كانوا يعتقدون أنها شر زاده وجود المستعمرين الأوربيين، وهؤلاء هم القطاع الذي يفضِّل - إلى الآن على ما يبدو- شرب الدخان والحشيش والأفيون مثلًا لكي يتجنب المحرمات، إلا أن وثائق هذه الفترة تقول بوضوح أيضًا إنه كان هناك - في المقابل - قطاع أكبر من المصريين كانوا يعرفون طريقهم بمنتهى النشاط إلى البارات، وبصورة شبه منتظمة، وإن أعدادهم زادت بكل تأكيد مع تزايد أعداد المهاجرين الأجانب والأوربيين "إيطاليون ويونانيون وإنجليز وفرنسيون وغيرهم"، بالإضافة إلى وجود عدد من العثمانيين والجركس، الذين مثلوا قطاعًا لا يُستهان به من البيئة المصرية آنذاك، ووسط كل هذا الغضب المصري المنظم، لعب البارات دورًا مهمًا.

مركز "الانفجار" السياسي

كان علينا أن نعيد النظر في تاريخ "ثورة عرابي" لنفهم إلى أي

62 ـ ناقشنا هذه النقطة بتوسع في كتابنا السابق "بارات مصر قيام وانهيار دولة الأنس"، وتحديدًا في الفصل المعنون "ريش.. مائة عام من الثورة".

حد كانت مشاركة الطوائف البسيطة من المصريين في الثورة سببًا في اشتعالها واستمرارها لمدة عام، وإلى أي حد شاركت فيها أماكن اللقاءات مثل "المقاهي والبارات" وربما المساجد أيضًا، على يد نخبة من ملاّك الأراضي والفلاحين والأغنياء والانتليجنسيا وتجار المدن وطوائف الحرفيين الغاضبين، ما دفع الباحث الأمريكي جوان كول، في مؤلفه بالغ الأهمية "الكولونيالية والثورة - الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر"، إلى الاعتقاد في أن ثورة عرابي - وثورات أخرى في الشرق مثل "الثورة الإسلامية" في إيران 1979 ـ قامت لأسباب عدة، بينها سبب يتعلق بكراهية الشرقيين أن يتعرضوا للظلم من جانب الأجانب المخالفين لهم في الملة، مدللًا على ذلك بقدرة المصريين على تحمل مظالم المماليك لقرون عدة، لأنَّ ولاة المماليك كانوا يحكمون تحت لافتة إسلامية يرضاها المصريون، كما كانوا في الغالب من المتدينين شكليًّا، الأمر الذي رحمهم من ثورات شعبية كبرى، خرجت ضد المحتل المسيحي، الذي كان يرتدي العباءة الإسلامية في المناسبات، "نابليون بونابرت"، وربما كانت هذه الكراهية هي التي قتلت أحد قادة جيوشه "الجنرال كليبر" على يد سليمان الحلبي، ما أدى إلى خروج "جيش الشرق" الفرنسي، منكسرًا من مصر، بعد ثلاثة أعوام ونيف.

يعيب كول - وهو مُحق - على "أغلب مؤرخي مصر الحديثة"، إهمالهم أصوات الطبقات الدنيا من التدوين والتسجيل والرصد[63]، لذلك يقوم بفعلٍ مُضاد، بأن يأتي بأصوات ونداءات الفئة المستبعدة

63 ـ يركز جوان كول دراسته على تحليل الأحداث في مصر من سبتمبر 1881 إلى سبتمبر 1882، التي أسماها المؤرخون الغربيون فترة "ثورة عرابي" وهي تمتد عامًا كاملًا.

من كتب التاريخ، يأتي بالمعارك التي اندلعت في البارات ليحكي عن الصراع الدموي الذي عرفه الشارع، والذي لا يمكن للأوضاع معه أن تستمر، مثلما يُسمعنا أصوات الشكاوى التي خرجت من بعض أبناء الطوائف، قبل قليل من الثورة العرابية، ربما ليستطيع أن يجد أسبابًا جديدة لاندلاعها، يقرأ أيضًا بعض الوثائق، وهي عبارة عن "التماسات" تقدمت بها بعض فئات "الصنَّاع المهرة المياومين" أو حتى العمال العاديين، والتي شاءت لها الأقدار أن تُحفظ في "دار الوثائق القومية"، وقد عبَّرت هذه الالتماسات عن سخط هؤلاء العمال العاديين على شيوخ الطوائف التي ينتمون إليها، و"رغبتهم في تشكيل طائفة خاصة بهم، للتخلص من المعاملة السيئة، التي يلقونها من مسؤولين ذوي اهتمامات اقتصادية وعرقية مختلفة عما يلقونها من نظرائهم"، لقد كان كل ذلك مقدمة لابد من منها لتندلع الثورة، في الشارع، وسببًا وجيهًا لتدخل الجيوش الإنجليزية.

لقد اعتبر كول أن المؤازرة التي حظيت بها حركة الزعيم أحمد عرابي، من قِبل بعض الطوائف ضد الخديوي[64]، جاءت على نحو واسع وعلى خلفيَّة هذه الكراهية "العرقية"، بغية تعزيز موقف الضباط "المصريين" في الجيش، في مواجهة "العرقيات" العثمانية، ومن أجل أن تمارس السلطة البرلمانية دورًا أكبر في مواجهة الخديوي "غير المصري" عام 1882، لافتًا إلى أن الثورة كانت في الطريق نحو "خلق نوع جديد لنظام دولة مستقر" ويضيف كول: "عند إقالة عرابي من

64 ـ استمرت الهيمنة العثمانية على مصر إلى بداية القرن العشرين، ولكنها كانت شكلية في كثير من الأحيان، ومنذ العام 1876، أصبح الحاكم العثماني لمصر يُعرف باسم "الخديوي". وهي وظيفة توارثها أفراد عائلة محمد علي باشا.

منصبه كوزير للحربية تكاتفت الطوائف البسيطة من أجل إعادته لمنصبه، ومنها طائفة الإسكافيين وبائعي اللبن والخياطين"، معتقدًا أن البريطانيين قاموا بغزو مصر بعد ذلك: "من أجل ألا تنجح عملية تشكيل الدولة في خلق نوع جديد لنظام مستقر قد ينهي الامتيازات الأوروبية، ويهدد أمن الملكيات والاستثمارات الأوربية".

وربما كان كول محقًا، وقد بذل جهدًا صادقًا في كتابه ليثبتَ تفاصيل هذه الكراهية، التي اندلعت على هيئة اشتباكات في عدة حانات، ويتساءل: "كيف استطاع المثقفون الجدد، توظيف "المنتديات السياسية" والصحافة الخاصة الجديدة في خلق أيديولوجيات معارضة، ما هي البنية التحتية التنظيمية بين الطوائف والفلاحين التي ساعدت على شرح نماذجهم وتكتيكاتهم في هذه الفترة؟".

وهكذا يمكننا أن نعتقد أن البار أصبح هو "مسرح العمليات السياسية" الأبرز، في هذه الفترة، حيث كان يُمكن من خلاله توجيه رسالة سياسية، ويُمكن الدخول في معركة على أرضه، فضلًا عن إمكانية جمع المعلومات منه، على الرغم من أن الكاتب يشدد على صعوبة الفصل بين الأعمال الإجرامية والاحتجاجات الاجتماعية، لافتًا إلى واقعة حدثت في عقد الستينيات من القرن التاسع عشر، اعتبرها أيقونة متكررة في كثير من مواقف الصدام الطائفي خلال الثورة، وهي واقعة شجار بين السكارى، ويضيف: "أيضًا كان بعض الأفراد من الطبقة العاملة المصرية يتعاطون الخمور"، قبل أن يروي لنا هذه الواقعة:

"في مايو 1865، بدد سكون مدينة الإسكندرية شجارٌ نشب بين عددٍ من السكارى، فقد دخل ثلاثة بحارة إيطاليون، يترنحون من السُّكْر

ويعملون على سفينة حربية قديمة بالميناء، في شجار مع بعض الحمَّارة المصريين في إحدى الضواحي، واستمروا في ضرب الحمَّارة حتى جاء عدد كبير من العرب "يقصد المصريين"، لنجدتهم وهاجموا الأوربيين، فهرب البحارة إلى المدينة حيث جمعوا بعض رفاقهم وشنوا هجومًا عنيفًا على العرب، الذين راحوا يتعقبونهم، حين إذن جاء بعض حرس الشرطة، "وكانوا من الأتراك والألبان"، وأخذوا جانب العرب، وقبضوا على البحارة".

ما أريد قوله إذن، أن البارات لعبت دورًا جوهريًّا خلال أحداث "ثورة عرابي" التي امتدت لنحو عام، وكانت منتشرة انتشارًا جعلها جزءًا لا يتجزأ من المشهد السياسي العام، فقبل نحو شهر من هجوم الأسطول البريطاني المتمركز في البحر المتوسط على الإسكندرية وقصفها، بين 11 ـ 13 يوليو 1882، كانت هناك معركة كبيرة، سالت فيها دماء مصريين وأجانب، أطلقت عليها صحف هذا الزمان اسم "مقتلة الأحد الدامي"، وقعت يوم الأحد 11 يونيه 1882 في مدينة الإسكندرية، وكان مسرحها مجموعة من البارات والمقاهي، حيث تطوَّرت الأمور إلى مقتلة عامة في الشوارع، ما يكشف عن دور كبير للبارات في انفجار الوسط السياسي المصري.

"مقتلة الأحد الدامي"

هكذا تحوَّل المجتمع المصري، باتجاه استثمار الانتشار السريع للبارات، وتحوَّلت البارات بدورها، من مجرد مكان لتناول المشروبات المُسكرة، إلى أن أصبحت عشية "ثورة عرابي" حلبة سياسية واسعة

للنقاش، يلتقي فيها الأصدقاء والفرقاء، ما منحه بريقًا إضافيًّا، وساهم في أن تختمر فكرة الثوار حول أنفسهم وحول ما يمكن أن يفعلوه لتغيير واقعهم المرير، هؤلاء المصريين البسطاء الذين كانوا قادرين على خوض النقاش السياسي الصاخب، وهم يسكرون في الحانات، إلى جوار خصومهم السياسيين، إذا شئنا الدقة، الأمر الذي أثمر تصميمًا وإصرارًا من جانب الثوار، وأثمر على الجانب الآخر تصميمًا من جانب الأجانب، وشارك في نهاية المطاف في إنضاج اللحظة السياسية "الثورية".

ففي هذه اللحظة التاريخية بالذات، كادت الفكرة الثورية أن تختمر خلف الزعيم المصري أحمد عرابي، على وقع أنباء تبثها وسائل إعلام ذلك الزمان عن نوايا بريطانيا في التحرك ضد مصر، وقتها بدأت الصحف تنتشر، وبدأت المقاهي والبارات تعرف قيمة ذلك الرجل ـ أو حتى ذلك الصبي ـ الذي يقرأ الصحيفة بصوت مرتفع، ليسمع كل مَن يجلسون في المقهى تفاصيل ما يرد في الصحيفة، حتى لو كانوا في الأصل أُميين "لا يقرأون ولا يكتبون"، وهكذا وفي ظل هذا الوعي العام بالأزمة، شكلت الانفجارت المتوالية داخل البارات، "وعيًّا ثوريًّا" لدى الجمهور الواسع من المصريين، سرعان ما عمَّ الطوائف الأساسية في البلاد، تكاتفًا مع الزعيم الوطني أحمد عرابي.

لقد انتبه كاتبنا الكبير الراحل صلاح عيسى، إلى خطورة ما في هذه المقتلة من معاني ودلالات اجتماعية وسياسية وثورية[65]، فقام بتحقيقها من صحف ذلك الزمان، وروايات شهود عيان، وصاغها في

65 ـ لصلاح عيسى كتاب مهم بعنوان "الثورة العرابيَّة".

كتابه المهم "حكايات من دفتر الوطن"، ليكشف لنا من جانب آخر، كيف كانت البارات في هذا الزمان - ولأول مرة في تاريخ مصر- أكثر انتشارًا حتى من المقاهي بمعناها الحالي، فهذه المقتلة تروي جانبًا من الغضب المصري الأصيل، ومن الأداء السياسي السيء للحكومة التي تمنح الأجانب كل شيء، ولا تمنح المصريين حتى الفتات، وتستعرض الواقعة أسباب مقتل "سائق حنطور" مصري، يُدعى السيد العجان، على يد تاجر من مالطا، ما أدى إلى انفجار المقتلة وسقوط عدة ضحايا من مصريين وأجانب، قبل شهر من دخول قوات الاحتلال البريطاني مصر.

وأترك القاريء مع كلمات الراحل صلاح عيسى، الذي يحكي القصة بأسلوبه البديع:

"في التاسعة صباحًا وصل مبنى القنصلية الإنجليزية أحد الرعايا المالطيين، لزيارة أخيه الذي كان يعمل في خدمة "المستر كوكسن"، القنصل البريطاني بالإسكندرية، وكان القنصل يهم بدخول مكتبه حين رآه، تقدم من المستر كوكسن. قبَّل يده. أعطاه "كوكسن" جنيهًا بقشيشًا. دخل المالطي إلى حيث يعمل أخوه، جلس معه قليلًا ثم خرج ليتنزَّه.

الحرارة ترتفع تدريجيًّا . قبل الضحى خرج المالطي من باب القنصلية، مرت عربة حنطور . استوقفها. صعد متثاقلًا. قال للسائق:

ـ إلى شارع السبع بنات.

مضى الحنطور متهاديًا كان "السيد العجَّان" سائق الحـنطور مرهقًا. فكر في أن الخـواجة قد يمنحه أجرًا طيبًا. بعد لحـظات طلب منه الخواجة أن يتوقـف قـليلًا. نزل من الحـنطور توجه إلى إحـدى

الخمارات، طلب كأسًا تجرَّعه بسرعة، ثم أردف بآخر.. وثالث.

بعد لحظة فتُر حماسُه للمكان. قام. مضى. تحرك الحنطور مرة أخرى، تكرر المشهد مرات ومرات، بين كل خمارة وأخرى ينزل المالطي، يطلب كأسًا، يحتسيه في شربةٍ واحدة، يردفه بآخر. ثم يواصل الرحلة بالحنطور. الحرارة تشتد. الخواجة قد سكر تمامًا. أخذ يثرثر مع "السيد العجان"، رد عليه بتثاقل. مضى نصفُ النهار الأول في توصيلة واحدة، لكن الزبون يبدو ثريًّا ولابد أنه سوف يعطيه الكثير..

دار السيد العجان بالمالطي على خمارات الحي الأوربي. سكر تمامًا. خرج من آخر تلك الخمارات. ركب العربة مرة ثانية. قلق "العربجي" لأن الخواجا قد سكر وسيكون التفاهم معه صعبًا. لفت نظره إلى أن الساعة قد قاربت الواحدة. كانت العربة قد وصلت إلى شارع "السبع بنات".

وقفت عربة السيد العجان أمام قهوة القزاز. توجه المالطي إلى حانة صغيرة بجوارها. كان صاحب الحانة يقف خلف المنصة. طلب المالطي كأسًا. على المنضدة قالب من الجبن الرومي، يقدم كجزء من المزات للرواد، ويُقطع بسكين حاد، يتصل بخيطٍ ثبت طرفه الآخر في الطاولة.

دخل السيد العجَّان خلف الخواجه، طالبًا منه أجره، قال المالطي إنه سيستعمل الحنطور مرة أخرى، وعلى العجان أن ينتظره، رفض العجان. كان منظر المالطي يوحي بأنه أوشك على الإفلاس، استثار إصراره غضب الخواجة، أخرج قرشًا واحدًا من جيبه وألقاه في إهمال للعجَّان، ثار الأخير وطالب بحقه. تصاعد الغضب. تشاتم الرجلان. لم يلتفت أحد لتشاجرهما، لأنه شيء عادي يحدث كل يوم.

فجأة تناول الخواجة السكين وطعن به السائق في بطنه

سقط العجَّان يتلوى على الأرض".

هكذا إذن بدأت المقتلة، التي نود أن نستخلص من تفاصيلها عدة حقائق تتعلق بالمرتبة التي باتت تستحقها البارات في الثقافة المصرية:

أولًا: لقد ودعت "البارات" في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تدريجيًّا، مرحلة الارتباط الشرطي ببيوت الدعارة والأنشطة المصاحبة لها، ودخلت مرحلة "البارات ـ المقاهي"،[66] وهي المرحلة السياسية في عمر بارات مصر، التي ظلت طوال عدة قرون تعيش مرحلة الترفيه المرتبط بالأنشطة ذات الطابع الجنسي، فإذا بها تأخذ مسارًا جديدًا، في ظل متغيرات سياسية جديدة على الأرض، وباتت المفارقة تجعل المواطن المصري لا يستطيع أن يختلط بناس "الحي الأوربي" في الإسكندرية مثلًا، إلا على هيئة "سائق حنطور" غلبان، بينما يستخدم هذا الحنطور في تنقلاته، ليوم كامل مُتنطع مالطي، يتسول - كما تقول الحكاية - بقشيشًا جنيهًا من القنصل البريطاني في الإسكندرية "مستر كوكسن"، بصورة مذلة، لدرجة أن الرجل أعطاه البقشيش بعدما قبَّل يده، ثم خرج ذلك المالطي المتسول للتنزه في مدينة الإسكندرية، بعدما أصبح يملك جنيها كاملًا، لكنه لم يعطِ لسائق الحنطور "المصري" الغلبان، سوى قرش واحد فقط، فانفجر الموقف.

ثانياً: أن هـناك سبعة بارات تقـع في "الحـي الأوربـي"، الذي لـم يكن

66 ـ تُعتبر "مقهى الحرية" نموذجًا لا يزال قائمًا إلى اليوم لـ "البارات المقاهي"، والشائع أنها تشغل الدور الأرضي من المبنى الذي أقيم في عقد العشرينيات من القرن العشرين مكان بيت "الزعيم أحمد عرابي"، لكنها شهدت لقاءات سياسية مهمة على مدار تاريخها، وجمعت عددًا من قادة تنظيم "ضباط يوليو"، انظر أنظر كتاب بارات مصر قيام وانهيار دولة الأنس.

يزيد على عدة شوارع في مدينة الإسكندرية، ما يعني أن بارات مدينة الإسكندرية كانت عامرة بالشاربين، ويعني أن أعدادًا مضافة من بارات القاهرة كانت في هذا التوقيت أيضًا عامرة بالشاربين، على وقع هذا الغليان السياسي العام، وأن كل هذه البارات شهدت بصورة أو بأخرى حراكًا مجتمعيًّا صاخبًا، ووفرت مناخًا ملائمًا لممارسة الجدل السياسي، بين فئات من النخبة المصرية، وكانت ساحة المعارك السياسية في هذا الزمن.

ثالثًا: ربما لم تنتهِ "دولة الخمامير" أو محلات "بيع البوظة" في مصر، باتساع دائرة البارات "أوربية الطابع"، فحكاية سائق الحنطور تشي بأنه كان هناك تفاوت في مستويات البارات التي دخلها المالطي، في "الحي الأوربي".

وفي النهاية نستطيع أن نقطع الآن بأن الخمامير استمرت إلى بداية القرن العشرين[67]، بل على العكس، فإن الأرجح أنها كانت تعمل ولو في حدود ضيقة إلى جوار البارات، ولعلها وجدت لها زبونًا مصريًّا لا يمتلك أسعار الجلوس في البارات، التي كانت تدفع الضريبة لا تزال بانتظام، ونحن نمتلك دليلًا وثائقيًّا دامغًا[68] على أن الحكومة المصرية وافقت يوم السبت الموافق 18 يونيه سنة 1913 للست سلاف جلزوبو، على افتتاح "محل بوظة"، في "محرم بك" بالإسكندرية، ويتضمن خطاب الترخيص عبارة لافتة تقول : "وأرفق مع الإخطار شهادة محررة

67 ـ الأرجح أن "البوظ" ظلت تتراجع طوال القرن العشرين، ووفقًا لروايات شفاهية، فإن آخر "بوظة" اختفت من أحد شوارع منطقة "العتبة"، مطلع عقد التسعينيات من القرن العشرين.

68 ـ راجع الوثائق المنشورة نهاية كتاب "بارات مصر قيام وانهيار دولة الأنس"، الطبعة الأولى القاهرة، دار روافد 2016.

من النيابة دالة على خلوه من المحظورات المنصوص عليها، في المادة الثالثة من لائحة المحلات العمومية، الصادرة في 9 يناير 1904، وقد تعهد المذكور بأنه لا يسمح بلعب القمار، في هذا المحل، من أي نوع كان ولا يتعاطى الحشيش".

كما نمتلك وثائق أصلية، صادرة عن حكومة مصر، أواخر القرن التاسع عشر تشير إحداها والمؤرخة يوم 22 نوفمبر عام 1891، إلى أنها "رخصة لبيع الخمر والمشروبات الروحية"، باسم الخواجة "شالوم كوهين"، المولود في مصر، وصناعته "خامورجي"، من سكان شارع الحمام بكفر الجامع، وبناء على ما هو مدون "ببند 1" من لائحة البوليس الصادرة في 13 يونيو 1891، قد صرحتُ له ببيع المشروبات الروحية أو الخمر في محله الكائن في .." التوقيع المحافظ أو المدير.

بتاريخ 22 نوفمبر عام 1911 وافقت الحكومة على افتتاح بار لـ "خريستو يني بابا سارتي"، المولود في قبرص، والمقيم في الإسكندرية.

شكر واجب

أود أن أشكر كل مَن شجعني على استكمال هذا الكتاب، وأحب أن أبدأ بمن هاجموا كتابي السابق "بارات مصر قيام وانهيار دولة الأنس"، على موقع جودريدز، فلولا انتقاداتهم القاسية ما أنجزت هذا الكتاب. وأفضل أن أوجه الشكر لكل التغطيات الصحفية التي لاحقت كتاب "بارات مصر" سواء تلك التي سعدتُ بقراءتها وتلك التي لم يسعدني الحظ بعد لقراءتها، مُمتن لكل من رأى في استكمال هذا البحث التاريخي الممتع لثقافة الخمور ضرورة وكتب لي رغبته تلك، وها أنا أتمنى أن أكون وفيت بما علي.

أشكر أسرتي التي صبرت على إنجاز هذا الكتاب صبرًا جميلًا وأشكر جميع الأصدقاء الذين ساعدوني بوجهات نظرهم الثاقبة ومنهم الصديق الروائي طارق إمام، كما أشكر الشاعر مسعود شومان والدكتور مصطفى القزاز على عظيم تشجيعهم وعميق نقاشهم الذي أسهم كثيرًا في إثمار هذا الكتاب.

المصادر

1 ـ "بدائع الزهور في وقائع الدهور" تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، الجزء الأول ـ القسم الأول، سلسلة الذخائر ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ 1999.

2 ـ "المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم" تأليف المستشرق إدوارد وليم لين بول، نقله إلى العربية عدلي طاهر نور ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكَتبَة الأسرة 2013.

3 ـ "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية" تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة 845 هـ ـ سلسلة الذخائر ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة الجزء الأول ـ طبعة جديدة بالأوفست من طبعة بولاق ـ 1999.

4 ـ "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، تأليف عبدالرحمن الجبرتي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب مكَتبَة الأسرة 2003.

5 ـ "موسوعة وصف مصر" تأليف علماء الحملة الفرنسية، ترجمة زهيرالشايب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة، 2001.

6 ـ "لمحة عامة إلى مصر" تأليف كلود بك، ترجمة وتحرير محمد مسعود، القاهرة، "دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع"، الطبعة الثالثة، 2001.

7 ـ "نظرة على مصر في زمن بونابرت" تأليف جان جاك لوتي، ترجمة ناجي رمضان، القاهرة، المركز القومي للترجمة 2008.

8 ـ "أخبار المشيخة الفرنساوية في الديار المصرية" مذكرات نقولا ترك، تحرير وتحقيق عبدالعزيز جمال الدين، القاهرة، دار آفاق للنشر 2014.

9 ـ "سيرة القاهرة" ستانلي لين بول، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن وإدوار حليم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة، 2012.

10 ـ "ألف ليلة وليلة" الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، "سلسة الزخائر" عام 1997.

11 ـ "مقدمة ابن خلدون" ، الجزء الأول ـ شرح وتحقيق دكتور على عبد الواحد وافي ـ طبعة "مكَتبَة الأسرة" القاهرة، 2006.

12 ـ "الجبتانا" أسفار التكوين المصرية، جمع الأصل اللاهوتي الديموطيقي، مانيتون السمنودي برواية الراهب أبيب النقَّادي ـ الجمع والتحقيق والمراجعة التاريخية والصياغة العربية، علي علي الألفي، القاهرة، دار "روافد" للنشر، 2011.

13 ـ "الخروج في النهار ـ كتاب الموتى"، ترجمه من المصرية القديمة وعلق عليه شريف الصيفي. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة 2013.

14 ـ "مصر الحديثة" تأليف اللورد كرومر، ترجمة صبري محمد حسن مراجعة وتقديم أحمد زكريا الشلق، المجلد الأول، القاهرة، المركز القومي للترجمة العدد 2156، عام 2014.

15 ـ "قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور"، الرقيق القيرواني، تحقيق سارة البربوشي، "منشورات الجمل"، بغداد ـ بيروت 2010.

16 ـ "المنمق في أخبار قريش" تأليف محمد بن حبيب البغدادي، نسخة إلكترونية.

17 ـ "العادات والتقاليد المصرية"، تأليف جون لويس بوركهارت، ترجمة د. إبراهيم أحمد شعلان، عن مخطوطة شرف الدين بن أسد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة 1997.

18 ـ "تاريخ مصر من خلال مخطوطة البطاركة" ساويرس ابن المقفع، إعداد وتحقيق عبدالعزيز جمال الدين ـ الجزء الثالث ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ 2012.

19 ـ "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" رفاعة الطهطاوي، تقديم جرجس شكري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2018.

20 ـ "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"، عبدالرحمن الجبرتي، تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي، دراسة وتقديم الدكتور أحمد زكريا الشِّلق، القاهرة، سلسلة "تراث النهضة" الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015.

21 ـ تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي ـ رؤية قبطية للفتح الإسلامي لمصر. ترجمة ودراسة تاريخية ولغوية الدكتور عمر صابر عبدالجليل. القاهرة، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2018.

22 ـ "مختصر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك" تأليف تقي الدين المقريزي، اختصار وتقديم عمر مصطفى لطفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول، القاهرة 2016.

المراجع:

23 ـ "مصر تحت حكم بونابرت غزو الشرق الأوسط"، تأليف جوان كول، ترجمة مصطفى رياض، مراجعة وتقديم أحمد زكريا الشلق ـ المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد 2100:

24 ـ "تاريخ العرب الاجتماعي تحول التكوين المصري من النمط الآسيوي إلى النمط الرأسمالي" ـ أحمد صادق سعد ـ دار الحداثة بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى 1981.

25 ـ "الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر" تأليف الدكتور محمد فؤاد شكري، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة 2013

26 ـ "النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية" حسين مروة ـ المجلد الأول ـ دار الفارابي ـ بيروت لبنان، الطبعة الثانية 2002 ـ المقدمة.

27 ـ "ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية" نيللي حنا ترجمة رؤوف عباس ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة 2004.

28 ـ "المدن العربية الكبرى في العصر العثماني" تأليف أندريه ريمون، ترجمة لطيف فرج، الطبعة الأولى دار الفكر للدرسات والنشر والتوزيع، "نسخة إلكترونية".

29 ـ "مصر في عهد محمد علي" تأليف عفاف لطفي السيد مارسو، ترجمة عبدالسميع عمر زين الدين، مراجعة السيد أمين شلبي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية (554)، 2015.

30 ـ "كل رجال الباشا" تأليف الدكتور خالد فهمي، ترجمة شريف يونس، الطبعة الثامنة عشرة 2018، دار الشروق القاهرة ـ طبعة أولى - 2001.

31 ـ "الكولونيالية والثورة ـ الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر"، تأليف جوان كول، مدارات للنشر، الطبعة الأولى، يناير 2016.

32 ـ "حكايات من دفتر الوطن" الكاتب صلاح عيسى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة 2015.

33 ـ "الصعلكة والفتوة في الإسلام"، تأليف أحمد أمين ـ مكَتبَة الأسرة ـ سلسلة الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2018.

34 ـ "في الشعر الجاهلي" تأليف طه حسين ـ طبعة دار المدى ـ سوريا 2001.

35 ـ "وعاظ السلاطين"، تأليف الدكتور علي الوردي، الطبعة الثالثة لشركة الوراق للنشر المحدودة، بغداد.

36 ـ "الخمر والنبيذ في الإسلام" ـ تأليف علي المقري، دار رياض الريس ـ بيروت 2007.

37 ـ "موسوعة الأمثال العامية" مشروحة ومرتبة حسب الحرف الأول من المَثل مع كشاف موضوعي، بقلم أحمد تيمور باشا ـ الطبعة الخامسة "مركز الأهرام للترجمة والنشر" مؤسسة الأهرام ـ 2007.

38 ـ "معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية"، تأليف أحمد تيمور، إعداد وتحقيق دكتور حسين نصار ـ الجزء الثالث (الجيم / الراء) ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ طبعة 1994.

39 ـ "الشعب المصري في أمثاله العامية"، تأليف إبراهيم شعلان، القاهرة "سلسلة الدراسات الشعبية" ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ فبراير / مارس 2004.

40 ـ "جحا العربي شخصيته وفلسفته في الحياة والتعبير"، تأليف الدكتور محمد رجب النجار، القاهرة، سلسلة "الدراسات الشعبية"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2006.

41 ـ "في الأدب الشعبي"، تأليف أحمد رشدي صالح، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة 2002.

42 ـ "ألف ليلة وليلة"، تأليف الدكتورة سهير القلماوي، القاهرة ـ دار المعارف.

43 ـ "فجر الضمير" تأليف جيمس هنري بريستد، ترجمة الدكتور سليم حسن، مراجعة الأستاذ عمر الإسكندري والأستاذ علي أدهم، "مكَتبَة مصر"، "دار مصر للطباعة"، سعيد جودة السحار وشركاه، عام 1995.

44 ـ "معجم الحضارة المصرية القديمة"، تأليف جورج بوزنر وآخرين، ترجمة أمين سلامة مراجعة الدكتور سيد توفيق القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مكَتبَة الأسرة 1996).

45 ـ "المرأة الفرعونية"، تأليف كريستيان ديروش نوبلكور ترجمة فاطمة عبدالله محمود وتقديم الدكتور محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة 2016.

46 ـ "مفهوم الشر في مصر القديمة" تأليف الدكتور علي عبدالحليم علي، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة 2017.

47 ـ "تاريخ العرب قبل الإسلام"، الدكتور جواد علي، 3 أجزاء، القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة 2010.

48 ـ "الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك"، الدكتور محمد رجب النجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2015.

49 ـ "المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام"، تأليف: جواد علي، الناشر: جامعة بغداد، "الطبعة الثانية" 1993.

50 ـ كتاب "غزال الكعبة الذهبي .. النظام القرابي في الإسلام"، فاضل الربيعي. دار جداول للنشر، بيروت، 2011.

51 ـ "الحياة اليومية في مصر القديمة"، تأليف بيير مونتيه، ترجمة عزيز مرقس منصور، القاهرة الهيئة العامة للكتاب "مكتبَة الأسرة" 1997.

52 ـ "مصر والإمبراطورية الرومانية ـ دراسة في ضوء الوثائق البردية والنقوش"، تأليف الدكتور الحسين أحمد عبدالله ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ـ الطبعة الأولى 2017.

53 ـ "قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية" تأليف أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2013.

54 ـ "هوامش الفتح العربي لمصر" تأليف سناء المصري، "مختارات الكرمة"، الناشر دار الكرمة للنشر، القاهرة 2017.

55 ـ "موسوعة ألف ليلة وليلة أو الليالي العربية" تأليف أولريش مارزوف وريتشارد فان ليفن، المجلدان الأول والثاني، ترجمة السيد إمام، القاهرة، المركز القومي للترجمة 2018.

56 ـ الدخان والمجتمع المصري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر 1848 ـ 1914. الدكتورة هيام صابر. الطبعة الأولى الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة "تاريخ المصريين"، القاهرة 2018.

57 ـ "اكتشاف بحار العالم من العصر الفينيقي إلى الزمن الحاضر" ـ تأليف مايكل نورث ترجمة عدنان عباس علي، عالم المعرفة 457، الكويت، أغسطس 2019.

58 ـ "بين التاريخ والفولكلور، د. قاسم عبده قاسم، دار "عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية". القاهرة 1993.

59 ـ "الفرعون الأخير محمد علي"، تأليف جيلبرت سينويه، تقديم ديروش نوبلكور ترجمة عبدالسلام المودني، منشورات الجمل، بغداد ـ بيروت 2012.

60 ـ "هوامش المقريزي"، تأليف صلاح عيسى، دار الكرمة للنشر، 2019، القاهرة.

61 ـ "تجار القاهرة في عصر محمد علي"، تأليف دكتور رزق حسن نوري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2018.

62 ـ "فتح العرب لمصر" تأليف ألفريد ج. بتلر، تعريب محمد فريد أبوحديد بك، تحقيق وتعليق د. نهلة أنيس مصطفى، وإشراف د. أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2020.

63 ـ الخمرة وظاهرة انتشار الحانات ومجالس الشراب في المجتمع العربي الإسلامي، تأليف دكتور سليمان حريتاني، دار "الحصاد" للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1996.

64 ـ عوام وسلاطين.. الاحتجاجات الحضرية في أواخر العصور الوسطى في مصر والشام، تأليف دكتورة أمنية البنداري، ترجمة: عثمان محمد عثمان، المركز القومي للترجمة (العدد 3100) ـ القاهرة 2019.

65 ـ موسوعة الفولكلور والأساطير العربية تأليف شوقي عبدالحكيم، دار "رؤية للنشر" ـ القاهرة 2020.

66 ـ "ما التاريخ" الدكتور أحمد زكريا الشلق، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2018.

67 ـ "نبع الينابيع"، عبدالله الطوخي، "مكَتبَة الأسرة"، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 2000.

68 ـ الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، أحمد صادق الجمّال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكَتبَة الأسرة، 2013.

يأخذنا الكتاب في رحلة طويلة، عبر التاريخ؛ لنتتبع تطوُّر ثقافة الخمور في مصر. بدءًا من تقديس الخمور في مصر القديمة، وعند قدماء المصريين. ومُرورًا بتاريخ الخمور عند العرب قبل الإسلام، وكيف كان يتم التعامل معها.

مع إلقاء الضوء بدقة على مرحلة وحِقْبَة المماليك، والعصر العثماني، حيث تأرجحت بين الإباحة والتحريم. ووصولًا لدور البارات في ثورة عرابي، والتاريخ الوطني للنضال، والذي كان جزء كبير منه يتم عبر البارات.

رحلة طويلة شيقة تمكَّن الكاتب بدقة من رصد وتحليل تاريخ ثقافة الخمور وانتشارها، أو منعها وتحريمها. حيث نتتبع، "منازل احتساء الجعَّة" في مصر القديمة، والتي تحوَّلت إلى "الخمامير" قبل أن تتطوَّر "الخمامير" بدورها إلى "بارات"، بالمعنى الحديث للكلمة أوائل القرن التاسع عشر، حيث كان أول بار مصري أسسته الحملة الفرنسية على مصر عام 1800، وقد أشار إليه مؤرِّخ تلك الفترة عبد الرحمن الجبرتي، وعُرف باسم "بار المشهد الحسيني".

كتاب شديد التشويق، وبأسلوب حكائي عميق، مُوثَّق، يأخذنا في رحلة عبر التاريخ، لتطوُّر ثقافة موجودة في كثير من أدبيات العرب القديمة، والحديثة على حد سواء.

محمود خيرالله: شاعر وصحفي أصدر خمس مجموعات شعرية بينها (كل ما صنع الحداد) عن دار صفصافة 2010 وآخرها (الأيام حين تعبر خائفة) 2019 كما أصدر كتاب (بارات مصر قيام وانهيار دولة الأنس) عام 2016 وشارك شاعرًا في عدة ملتقيات شعرية مصرية وأجنبية، وترجمت بعض أعماله إلى الفرنسية والإسبانية.

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
ISBN 978-977-821-240-2
9 789778 212402